المركز القومى للترجمة

مرغوليوث

دراسات عن المؤرخين العرب

ترجمة: حسين نصار

ميراث الترجمة

1656

دراسات عن المؤرخين العرب

المركز القومى للترجمة

إشراف: جابر عصفور

سلسلة ميراث الترجمة

المشرف على السلسلة: مصطفى لبيّب

- العدد: 1656
- دراسات عن المؤرخين العرب
- مرغوليوث
- حسين نصار
- 2010

هذه ترجمة كتاب:

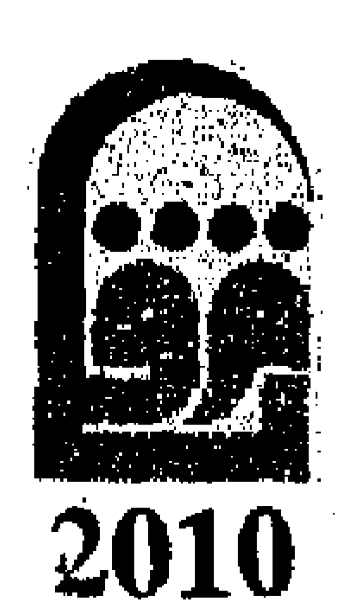
Lectures on Arabic Historians
By: David Samuel Margoliouth

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ – ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524- 27354526 Fax: 27354554

دراسات عن
المؤرخين العرب

تأليف: مرغوليوث
ترجمة: حسين نصار



2010

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

مرغوليوث
دراسات عن المؤرخين العرب/ تأليف: مرغوليوث؛
ترجمة: حسين نصار
القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٠
١٧٦ ص؛ ٢٠ سم
١- المؤرخون العرب.
٢- التاريخ.
(أ) نصار، حسين (مترجم).
(ب) العنوان ٩٠٧,٢٠٢

رقم الإيداع ٢٠١٠/١٩٣١٧
الترقيم الدولى I.S.B.N. 978 - 977 - 704 - 310 - 6
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربي وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

هذا الكتاب ...

مؤلف هـــذا الكتاب ، المستشرق الكبير د. س. موغوليوث ، من اعظم المستشرقين الذين عرفتهم الدراسات العربية والاسلامية . فقد أسدى هذا المستشرق الكبير خدمات جليلة الفائدة في مضماري الأبحاث الاصيلة ونشر المخطوطات . وقد نشر دراسات كثيرة عن العرب ومدنهم وتاريخهم وعلاقتهم بالاسرائيليين قبل الاسلام ؛ وقام بتحقيق مخطوطات بالغة الاهمية اشهرها « معجم الادباء » لياقوت .

وهذا الكتاب الذي نضعه بين يدي القارىء العربي اليوم هو سلسلة محاضرات ناضجة القاها المستشرق الكبير في جامعة كلكتا ، وقد كانت زبدة دراسته وبحثه الطويلين في المخطوطات والمؤلفات العربية التاريخية .

وقد قام بترجمة هذا الكتاب الى العربية الدكتور حسين نصار احد اساتذة الادب العربي في كلية الاداب في جامعة القاهرة . والدكتور نصار مؤلف مشهور في حقلي الدراسة الادبية والتاريخية وقد ترجم عـدداً من الكتب القيّمة الى اللغة العربية اهمها : « مصادر الموسيقى العربية » لفارمر ،

و « المغازي الأولى ومؤلفوها » لهوروفتس ؛ ونشر : « رحلة ابن جبير » وقام بتحقيق وشرح ديواني سراقة البارقي وابن وكيع التنيسي ومن مؤلفاته : « المعجم العربي — نشأته وتطوره » (جزءان) ، « نشأة التدوين التاريخي عند العرب » ، « نشأة الكتابة الفنية عند العرب » .

ونحن اذ نقوم بنشر هذا الكتاب ، فما ذلك الا ايماناً منا بفائدته للدارسين والمهتمين بالدراسات التاريخية ؛ والله نسأل أن تكون الفائدة منه عامة .

دار الثقافة

محتويات الكتاب

صفحة

تصدير

قدم أحد الزملاء من الدارسين لمستشرق مشهور ، نشر عدة كتب عربية ، الملاحظة والسؤال التاليين : أرى، يا استاذ ، انك قد طبعت عدداً من الآثار العربية ؛ فمتى تنوي ان تشرع في قراءتها ؟ وليس من المحتمل أن يقدم مثل هذا السؤال الى الكاتب الحالي ، الذي ترجم كثيراً من الكتب العربية التي نشرها وعلق عليها ؛ ولكن قد يقال ما يشبه ذلك عن المجلدات السبعة التي تضم « معجم الادباء » لياقوت ، والتي تمتع (وكد") بنشر معظمها مرتين ، دون ترجمة ، ومع أقل عدد ممكن من التعليقات ، التي وجهت همها الاول الى نقد الروايات . ولذلك حين دُعي لالقاء بضع محاضرات في جامعة كلكتا ، اعتبر الدعوة فرصة لجمع المعلومات التي يضمها كتاب ياقوت عن المؤرخين العرب الرئيسيين في القرون الهجرية الاربعة الاولى وترجمتها الى الانجليزية، وإضافة ما زودته به دراسته لهؤلاء الكتاب من ملاحظات اليها . فكثير من محتويات الكتاب مألوف لدى الدارسين من العرب ، ولكنني أومل أن يجدوا المحاضرات محتوية على قسط ذي شأن من المعلومات الجديدة .

اكسفورد ، يولية ١٩٢٩

د. س. م.

دراسات عن
المؤرخين العرب

الفصل الاول

نظرة عامة في الموضوع

التاريخ موضوع يؤلف احد الفروع الغزيرة المادة في الادب العربي . وقد قام المستعرب الالماني وستنفلد Wüstenfeld باعداد مجموعة من المؤرخين العرب الذين عاشوا في السنوات الالف الاولى للاسلام ، فبلغ العدد ٥٩٠ . ومن المرجح ان كثيرين قد أفلتوا منه ، ولو تنبه اليهم لزاد العدد كثيراً . وكثير من آثار هؤلاء المؤرخين ضخم الحجم. يروى أن الطبري المؤرخ (ت ٣١٠ هـ) أراد أن يملي على تلاميذه كتابا في التاريخ : أراد أولاً أن يضم ٣٠,٠٠٠ ورقة ، ولما اعترض تلاميذه بأن العمر لا يكفي لدراسة مثل هذا الكتاب ، اختصره الى العُشر ، فجعله ٣,٠٠٠ ورقة ، وهو ما يتفق مع نسخ ليدن والقاهرة . وقد ترك له هذا التأليف من الفراغ ما أتم فيه كتاباً آخر بنفس الحجم عن القرآن ،

ويقـــال عنه ايضاً إنه عُشر الحجم الذي كان يعتزمه أصلاً . ومتوسط ما كان يكتبه في اليوم ، في الحقبة المثمرة من حياته ، ٤٠ ورقة ؛ ووجد هؤلاء الذين قسموا الاوراق التي كتبها على أيام حياته من المهد الى اللحد أنه قد كتب ١٤ ورقة في كل يوم من أيام حياته . وقد اعتُبر حقبة ، هو وسلفه الجاحظ البصري ، وخلفه ابن حزم القرطبي ، أكثر المؤلفين العرب تأليفاً ، ولكن يبدو أن ليس لاحد منهم الحق في هذا الامتياز . إذ تملأ عناوين كتب المدائني (ت ٢٢٥) ، الذي كان من أوائل المؤرخين ، ما يزيد على خمس صفحات . وتستهل كتب ابن عساكر (ت ٥٧١) بتاريخ دمشق في مئة مجلد ، وكانت المسودة الاولى منه تضم ٥٨٠ كرامة ، والاخيرة ٨٠٠ . ولكن يليه مجموعة من عناوين الكتب التي لا تشغل غير صفحتين ، وبعضهـا ذو حجم واضح الضخامة . ومن الواضح أن تاريخ الطبري، على ضخامته ، لا يقارن في الحجم بتاريخ الاسلام للذهبي في القرن الثامن الهجري .

وكان لمعالجة التـــاريخ على هذا المجال المتسع بعض المحاسن الواضحة ، وان كنا سنرى ان المحتويات لا تتناسب مع ضخامة الكتاب أحيـــاناً . إذ كثيراً ما تتضخم المجلدات بتكرير المادة الواحدة او التي تكاد تكون واحدة ، لتغير سند رواتها . ولذلك من الممكن اختصار مجلد كامل من ابن عساكر إلى صفحات قلائل (غالباً) إذا ما رضي القارىء بسند واحد للخبر الواحد . ولكن من الواضح أن ثمن النسخ لا بد كان مرتفعاً ، حتى في حالة تناسب

المحتويات مع الضخامة ، ومن ثم لم يكن تنسخ إلا نسخ قليلة ؛ وتبين الاقوال المتناثرة التي نحصل عليها عن ثمن الكتب أو تكاليف النسخ أنه لم يستطع الحصول على مجموعات كاملة من أمثال هذه الكتب إلا قليل من الدارسين . وحينما يتوفى مالك مثل هذه الكتب ، كانت المجلدات توزع بين الورثة . ولذلك كان الدارس الذي يستطيع أن يرى جميع مجلدات كتاب من هذا النوع بالرحلة إلى البلدان المختلفة في كثير من هذه الاحوال يعتبر نفسه حسن الحظ .

وبرغم أن ثبت وستنفلد ينتهي بعام ١٠٠٠هـ ، لا يبتدىء بوفاة النبي . والاقوال المتعلقة بالأدب المنثور المدون على صورة الكتب قبل العهد العباسي غامضة ولا يوثق بها في أغلب الاحيان . والمحل الطبيعي للكتاب لدينا مادة ما مثل الورق : حُفِظ في الذاكرة أو لم يحفظ . ولكن المحل الطبيعي للكتاب لدى العرب هو الذاكرة : دُوِّن أو لم يدون . وفي القرآن شواهد على أنهم كانوا يعتبرون الذاكرة محل الكتاب ، بغض النظر عن اهمية التدوين عندهم . والنص المروى قد يُحرَّف او يُنْسَى ؛ وقد يُدوَّن أو يحفَظ . ونقرأ فيه عن نصوص واضحة في صدور من وصفوهم بالمعرفة . فيقال إن أهل الكتاب اتخذوا « جداول » من كتبهم المقدسة : ومن الممكن أن توجد هذه الكتب ، وقد وجدت فعلاً ، مستقلة عن هذه الجداول ، وأمكن نقلها على هذا النحو إلى الانبياء بالوحي . وستتاح لنا الفرصة فيما بعد لملاحظة قوة سيطرة هذا

التصور عليهم حتى في الوقت الذي دونوا فيه وقيـــدوا الكتب الضخمة على نطاق واسع .

وستشغل الاسباب التي منعت تطور الادب المنثور قبل العصور العباسية والعلل التي تغلبت عليها بعض وقتنا في الغد. والأمر الذي يثير عجبنا ، عند اعتبار الضخامة الهائلة التي بلغ إليهـــا الادب التاريخي ، هو سرعة ذلك التطور . ويشبه ذلك التدفق المفاجىء لقدر كبير من الماء كان مخزوناً . ولعل أحد الاسباب اختراع لم يعط في تاريخ التقدم القيمة التي هو أهل لهـا ، ذلك هو الورق ، الذي أدخله المسلمون في أوربا . وقد حصل عليه المسلمون من الشرق الاوسط ، وأخذوا في استخدامه وصناعته حتى في القرن الاول من تقويمهم . ويشبه ذلك الاختراع ، في ترخيصه عملية إنتاج الكتب ، اختراع الطباعة .

ولكن يبدو أن الاسلام نفسه ، مع ظهور العباسيين ، وبناء عـاصمتهم العظيمة بغداد ، حطم الاغلال . حقاً ليس من الواضح ان الاسرة الجديدة استبدلت المثل الاموية في التدين والاخلاق بأحسن منها . ولكن من اليسير تبين الترحيب الذي لقيته الاسرة الجديدة ، إذ كانت الاضطهادات بين بني أمية وآل النبي من العمق بحيث لا تسمح بالاخلاص لاحدهما . ويروى عرضاً كيف أبطل عمر بن عبد العزيز الورع سب عليّ على المنابر : ولذلك يحترم الشيعة ذكراه . ولكن كان لهذا الخضوع للعاطفة من النتائج الخطيرة في زعزعة سلطة الامويين ما كان لاسترجاع رفات نابليون في زعزعة

دعائم المملكة الفرنسية . وحين نقرأ كيف لم يكن الناس في العهد الاموي يجرءون على تسمية أبنائهم بعلي ، أو حسن ، أو حسين ، لا يدهشنا ان تتأخر أقدم ترجمة للنبي الى ما بعد قيام العباسيين . إذ لم يكن من الممكن ان تروى ترجمة النبي في أيام الامويين دون زعزعة إخلاص المسلمين لحكمهم : زعزعة خطيرة : ولم تكن النتائج لتحسن الاوضاع. فاذا كان الناس خافوا أن يسموا أبناءهم علياً ، أو حسناً ، أو حسيناً ، وألف سماع سب عليّ على المنابر ، فإنهم كلما قل سماعهم أنباء صدر الاسلام ، ازداد احتمال احتفاظهم بطاعتهم .

ومن المرغوب فيه ان نعثر على بعض الاسس التي نستطيع أن نقيم عليها تصنيفاً لهذا الأدب الفسيح ، وربما زودنا بها تصورنا لما نريده من التاريخ . حقاً أننا لسنا في حاجة الى أن نشغل أنفسنا بالسؤال عن كيفية تدوينه : فقد قُدّمت عدة نظريات مختلفة عن ذلك الموضوع الغامض. ومن المحتمل أن نتفق جميعاً على انه سجل الحوادث : وان تلك الحوادث هي غالباً ، وإن لم يكن دائماً ، أقوال الناس وأفعالهم . ولعلنا نحصل على بعض أسس التصنيف من هذا التعريف .

اولاً من القدر المعالَج في المكان والزمان. فهناك تواريخ عامة وتواريخ خاصة . فكتاب الطبري تاريخ عام ، في قصده على اية حال . ولذلك يستهل بتعريف الزمان ونظرية عن عمر الدنيا . وعنوانه تاريخ الرسل والملوك . وحين يصل الى ظهور الاسلام ،

يقتصر على الجزء الذي ضمه الاسلام من العالم . وسار غيره من المؤرخين العامين المعترف بهم على الخطة نفسها .

وقيد المؤرخون الذين كانت خطتهم اقل طموحاً بالاجزاء الاسلامية من الارض او بهذا او ذاك من تلك الاجزاء : او بعهد ما من التاريخ الاسلامي عامة او من تاريخ دولة إسلامية خاصة . ولذلك لدينا تاريخ الاسلام للذهبي الذي اشرت اليه ، وتواريخ اقطار كمصر ، واسبانيا ، والمغرب ، او بلدان كمكة ، والمدينة ، ودمشق ، ونيسابور ، وهمذان ، وهراة ، او امرات كتاريخ الخزرجي لآل رسول في اليمن ، او تاريخ ابي شامة لدولتي نور الدين وصلاح الدين .

ويمت اساس آخر للتصنيف للاشخاص الذين كان لهم نصيب في الحوادث . والاحرى ان يسمى هذا الفرع ترجمة لا تاريخاً ، ولكن الخط الفاصل بين الاثنين غير بارز في الغالب . وحيثما يكون الشخص المدونة حياته حاكماً ، يختفي الخط الفاصل : إذ ان الحاكم هو الدولة وفقاً للقول المشهور للويس الرابع عشر ، وترجمته تاريخ لعصره . ولما كانت الدول المدون تاريخها خاضعة للحكم المطلق إلا في احوال نادرة ، وجدت التواريخ المتتابعة اقسامها الطبيعية إلى فصول بتعاقب الحكام . وحيثما يكون عنوان مثل هذا الكتاب بسيطاً ، لا خيالياً ، نجده كثيراً يتفق مع ذلك : فتاريخ الطبري ، كما رأينا ، تاريخ الرسل والملوك : وامثال العناوين التالية : تاريخ الخلفاء ، او اخبار الخلفاء ، عامة كل

العموم . ولا يزداد وضوح هذا الفاصل بين التاريخ والترجمة حين لا يكون الموضوع حاكماً وإنما وزير مطلق السلطة ، شأن كثير من الوزراء . فحياة الوزير الطيب علي بن عيسى، التي نشرها حديثاً مستر بوون Mr. Bowen ، في الحقيقة تاريخ لعهد المقتدر : لأنه بالرغم من قدرة الخليفة على تعيين الوزراء وعزلهم حسب هواه ، كان الوزير في اثناء تقلده السلطة مسئولاً عن جميع مصالح الدولة. حقاً اعتبر الحجة الكبير في القانون الدستوري الطريقة التي يفوض بها الحاكم الوزير سلطته أمراً عادياً . ولذلك يجب اعتبار الكتب التي تروي حياة الوزراء تواريخ لعهودهم . وغلك من الكتب الكثيرة التي عالجت هذا الموضوع قطعاً من كتابين ، وربما عثرنا على غيرهما . وإذا كانت هذه الكتب تختلف في الصورة عن التواريخ ، فان ذلك راجع الى ميل المترجمين العرب الى إيراد الأخبار دون ترتيب سنوي بدلاً من اتباع رواية الاحداث على ترتيب وقوعها .

وحينما كانت الترجمات لأشخاص أقل اتصالاً بالشئون العامة ، لم تصنف مع التاريخ بدون شروط معينة ، ولكن الباحث الحديث في ذلك الموضوع لا يستطيع أن يغفلها ، اذا أراد أن يفهم شيئاً عن حياة الرعية وشواغلها ، إلى جانب تتبعه الملوك في كفاحهم الخارجي والداخلي، وروابط الزواج بينهم، وقوانينهم. وأدب التراجم عند العرب غاية في الغنى : حقاً يبدو أنه كانت تقام سوق لترجمة من يتوفى في بغداد من الكبراء كما هو الحال في

عواصم أوربا في ايامنا ؛ وحيثما تفرض شخصية رجل ما تأثيرها في الرأي العـــام لبعض الاسباب ، او تبلغ آثاره الادبية مرتبة القدماء ، تلتف حوله عدة تراجم . ولا شك ان تراجم الاحيـاء كانت نادرة ، ولكننا لدينـا مثال لاحدها في كتاب ابي حيان التوحيدي عن الوزيرين ابن العميد الثاني والصاحب بن عباد ، الذي احتفظ ياقوت بمقتبسات كبيرة منه ، على حين يوجد من الاسباب ما يجعلنا نؤمن بأن الكتاب كله لا يزال موجوداً . فقد كان على وشك ان يطبع في الآستانة ، ولكن السياسة التي أرغمت الصحفيين العثمانيين على اخفاء قتل الرئيس ملك كنلي Mc Kinley ، منعت نشر كتاب يهاجم فيه أحد الوزراء . أضف إلى ذلك أن الكتاب اشتهر بأنه يجلب النحس ، كبعض الكتب الاخرى .

والادب المؤلف من تراجم مجتمعة غزير بصورة غير عادية ، ولذلك كان أيسر على دارس تاريخ الخلفاء ان يجد شيئاً مـا عن الاشخاص المذكورين في التواريخ من عثوره عليـــه في اية حالة مشابهة . وقد جمع بعض المؤلفين تراجم الكبراء في جميع الالوان : وكتاب ابن خلكان معروف ، ولا تزال توجد عدة مجلدات من كتاب آخر اوسع نطاقاً منه إلى درجة بعيدة ومتأخر عنه بما يقرب من قرنين . ولكن الاكثر ان يقتصر هؤلاء الجامعون على فئة خاصة من الاشخاص – الشعراء ، او الاطباء ، او فقهاء احد المذاهب ، او القراء ، او المحدثون وما اشبه . او يعالجون اشخاصاً اشتهروا بصفة او عمل ما ، كالبخلاء او الطفيليين .

وامتاز في هذه الكتب أربعة مناهج أو تنظيمات . وقد نصف أولها بالتحكمي ، كما نرى في ذلك المخزن الكبير للمعلومات التاريخية ، أعني كتاب الاغاني ، الذي يعتمد الترتيب فيه على مجموعة من مئة قصيدة ملحنة اختيرت إجابة لامر أحد الخلفاء : وأدى ذلك إلى مجموعة من الروايات المتصلة بالشعراء والموسيقيين. والمنهج الثاني جغرافي. إذ يتخذ الجامع أساس تنظيمه الاقطار التي ينسب اليها الاشخاص الذين يتناولهم . وأشهر أمثلته « يتيمة » الثعالبي ، حيث يجمع الشعراء حسب أقطارهم ، وعيون ابن ابي أصيبعة، حيث يفعل مثل ذلك بالاطباء. والاساس الثالث حَولي. وتسمى الكتب التي من هـذا النوع « الطبقات » . فتعالج الموضوعات فيها وفقاً للأجيال . وأشهر أمثلة هذا المنهج طبقات الحفاظ للذهبي ، وطبقات الشافعية للسبكي . والاساس الرابع ، وهو الاكثر شيوعاً من بعض النواحي ، ألف بائي ، وهو الذي اتبعه ياقوت .

ولعل نظام الطبقات هو أنفع المناهج للباحث التاريخي : إذ يوجد فيه الاستمرار ، الذي هو جوهر التاريخ . وتفوقه على النظام الجغرافي واضح ، لان الدراسات الاسلامية مشتركة إلى درجة عظيمة ، بالرغم من انقسام العالم الاسلامي منذ وقت مبكر جداً الى دويلات مختلفة، بعضها لم يتصل بغيره الا بصلات واهنة. وربطت اللغة المشتركة ، والدين المشترك، والادب المشترك ، بين أسبانيا ومصر وبين سورية والعراق ، حتى عندما انقطعت عرى الروابط السياسية ، ولم يعد هناك أمل في الاتحاد ثانية . وكان

الشعراء ورجال العلم والحرف يرحلون من قطر إسلامي إلى آخر، ويقيمون حيثما أملوا النجاح إقامة مؤقتة أو دائمة. حقاً توجد أمثال تبالغ في مساوىء النفي : ولكن كثيرين ذكروا أنه طريق النجاح . وأشهر الشعراء العرب جميعاً ، المتنبي ، لم يستطع ان يبقى طويلاً في أي قطر : ووجد من يرعاه في مصر ، وسورية ، والعراق ، وفارس . ولذلك يعلق النظام الجغرافي أهمية كبيرة على ما هو عارض. وضحى الذين اتبعوا الترتيب الالف بائي بعض تضحيات ، إن لم يكن بالاستمرار ، فبالتماثل او بعض الصلات الاخرى التي تربط موضوعاتهم على أية حال. وكانت تضحيات ابن خلكان التي من هذا الصنف لها شأنها ، وارتكب ياقوت بعضها .

ثالثاً من الممكن ان نحول الاهتمام من المكان والاشخاص إلى الاحداث نفسها . وسنرى أن أقدم صور الرواية التاريخية اتبعت ذلك الاساس . فقد كان التاريخ المبكر للاسلام مجموعة من الحوادث، سجلها شاهد عيان أو أكثر: وهيأ لهم مقتل عثمان، وموقعة الجمل ، وموقعة صفين ، والتحكيم ، وفتوح البلدان المختلفة ، روايات متناثرة ، نظمت فيما بعد في تاريخ مستمر . واستمرت الرسائل ، كما يجب أن نسميها ، تدون عن هذه الاحداث وغيرها بعد أن صارت التواريخ المستمرة مألوفة بزمن طويل . ومن الممكن أن تعالج الاحداث لا على أنها تستحق الذكر في ذاتها ، بل على انها تمثل مبدءاً ما في الطبيعة البشرية أو في حكومة العالم. وأمدنا هذا التصور بعدد عظيم من المختارات ، وما أشبه ؛ ولا يفوق العربية في هذا الصنف من الادب غير قليل

من اللغــات . وكثيراً ما لا تبذل أية محاولة لترتيب المادة . ومما تجدر ملاحظته ان كتابي التنوخي اللذين من هذا النوع يتبع أصغرهما اساساً للترتيب ، أما أكبرهما فلا يتبع شيئاً . فينقسم كتابه « الفرج بعد الشدة » الى فصول تتنـــاول مجموعات من الاحوال التي تخلص فيها النـــاس من خطر داهم دون توقع منهم للخلاص : مثل التخلص من الحيوانات المفترسة ، وقاطعي الطريق ، والاحلام المفزعة ، وغيرها . اما كتابه الأكبر ، «جامع التواريخ» او « نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة » ، الذي لم نعثر منه إلى الآن إلا على مجلدين من أحد عشر ، فيخلط عمداً المادة التي تتناول عدداً كبيراً من الطبقات : ويظن المؤلف أنه يسهل الاحتفاظ باهتمام القارىء إذا تجنب التناسق . وبرغم ذلك لم يفلح تماماً في عزل الامور المتماثلة . وقد يبدو لنـا بعد أن في ذلك الكتاب شيئاً ما شبيهاً بالاساس الذي ترتب عليه كتب « المسانيد » ، أعني جمع المواد وفقاً للراوي الذي يرويها .

وأوجه العناية الى ثلاث خصائص واضحة في هذا الادب .

اولاً ، الاستقلال . حين بدأ التأليف الأدبي علـى النطاق الذي لاحظناه ، وجدت عدة فروع استخدمت فيهـا النماذج الاجنبية . وقلما يخفى الكتاب العرب دينهم : بل اعترفوا بـــه في طبهم ، ورياضتهم ، وفلسفتهم . وقد بدأت جميـع هذه الفروع من الأدب بالترجمة من الاغريقية : ويبدو أن من تلا الاولين لم يكف أبداً عن ترجمة النصوص الاغريقية والتعليق عليها . وفي باريس مخطوط

يحتوي على أربع ترجمات منفصلة لرسالة واحدة من رسائل أرسطو. وكان بعض الناس يشكون في مهارة الذين ادعوا المعرفة بالعلوم الاجنبية في هذه العلوم : ولدينا أكثر من خبر عن أشخاص أشرار قدموا الاسئلة الفلسفية الساخرة التي ظنها الفلاسفة أسئلة جادة وحاولوا الاجابة عليها . ونُظر إلى المعارف الاجنبية في عهود مختلفة في رهبة وفزع . ولا نزاع في كونها أجنبية الاصل. كذلك اعتُرف بجلب ادب الخرافات من الهند عن طريق فارس: ووجد بعض المقلدين ، بل ربما الكثير منهم. ومن العسير في النحو أن نغفل صلته الظاهرة بالدراسات السريانية في تلك المنطقة ، وكانت بدورها قائمة على الدراسات الاغريقية : بل لقد وجد بعضهم أثر يوناني الاصل في الاسم الذي أطلقه العرب على النحو ، وان بدا ذلك أمراً مستبعداً.

حقاً يضم الادب الاغريقي نظراء – ربما – لجميع فروع التاريخ التي عددناها . فكان لدى الاغريق التواريخ العامة ، وتواريخ الاقطار والمدن ، وتراجم الاشخاص والطبقات ، والمنتخبات Collectanea والسجلات Memorabilia ، التي تشبه في خصائصها ما تطور عنه الادب العربي . وبرغم ذلك يبدو أنه لا يوجد اثر لاي ترجمة من مؤرخ إغريقي إلى اللغة العربية: ولم يعرف المفهرسون العرب تلك التواريخ التي تُعَد في أوربا نماذج الكتابة التاريخية . بل يبدو أنهم أهملوا ايضاً المؤرخين السريانيين ، الذين كانت آثارهم تثير اهتمام اولئك المشتغلين بالدراسات القديمة . ربما أفادوا من المؤرخين الفرس، مثل اولئك الذين يبدوا انهم وجدوا

في العهود المسيحية ، ولكن هذه الافادة لا تتضح في العصور السابقة على ذلك . ويظهر أن التاريخ العربي مستقل عن هـذه الكتب وقد نما أمام أعيننا . وليس هو استمرار للتواريخ القديمة، لاسباب ستشغلنا بعد ، وإنما هو نمو طبيعي، جاءت به الى الوجود حاجات المجتمع وتتجلى فيه خصائص خاصة به .

ثانياً ، كان المؤلفون في النادر جداً مؤرخين رسميين ، يقتضيهم واجبهم تسجيل ما تريد الحكومة تسجيله . وقد ذكر الطبري وغيره حالات أمر فيها الخليفة بتأليف كتب، مثل مجموعة الاغاني القديمة التي أمر المهدي بجمعها ، والرسائل التي أمر القادر بتدوينها عن المذاهب الاربعة. ويبدو انهم لا يذكرون حالة أمر فيها الخليفة بتدوين كتاب تاريخي ، وان دونوا حالات عاقوا فيها مثل هذه الكتب أو منعوها . ويمثل التواريخ الرسمية كتاب « التاجي » الذي عنون باسم « تاج الملة » ، وهو احد القاب عضد الدولة، ومؤلفه إبراهيم الصابي الكاتب المشهور. وقد ألف الرجل، باعتباره كاتب عز الدولة بختيار ، ثاني أمراء بغداد من البويهيين ، رسائل أساءت إساءة بالغة لابن عمه عضد الدولة ، الذي هاجمه بعد وفاة أبيه وخلعه عن عرشه . وبرغم ان إبراهيم لم يكن الا منفذاً لاوامر مولاه ، فلا يعتبر مسئولاً عما تضمنته رسائله من مشاعر ، وانما يسأل عن التعبير وحده ، طلب إليه عضد الدولة أن يكفر عن إساءته في تأليفها ، وكان التكفير المقترح ان يدون تاريخاً رسمياً لبني بويه . ويقال إن جزءاً كبيراً من هذا الكتاب مقتطف

في تاريخ مسكويه، ولكننا لم نعثر بعد على الاصل، وإن احتفظ ببعض قطع منه في اليتيمة للثعالبي وتاريخ اليميني للعتبي . وحين سأل أحد الزوار ابراهيم عما يفعل ، في أثناء اشتغاله بهذا الكتاب، أجاب : « أباطيل أنمقها وأكاذيب ألفقها » . فلما سمع عضد الدولة ذلك القول استبد به الغضب حتى أمكنه بكل مشقة ان يمنع من قتل إبراهيم قتلة شنيعة . وقد راجع عضد الدولة نفسه الكتاب قبل إخراجه. ومن الممكن وضع تاريخ اليميني أو أخبار غزوات يمين الدولة في الهند للعتبي مع التواريخ الرسمية : وقد يقال الأمر نفسه عن الوصف المليء بالعجيج، الذي قام به عماد الدين الاصبهاني كاتب صلاح الدين ، لاسترجاعه بيت المقدس ، وأعطاه العنوان الفخور « الفتح القسي في الفتح القدسي » .

ولا تخلو مجموعة من التواريخ الرسمية للخلفاء من القيمة ، ولكن مثل هذه التواريخ فقيرة ولا يوثق بها ، إذ تقتصر على ما يرغب الحاكم تدوينه .

وقد كتب المؤرخون في أغلب الأحيان لتعليم مواطنيهم ، وبرغم تأثرهم أحياناً بهوى ديني أو وطني ، يعتبر حيادهم العام سمة مدهشة في كتبهم . ولا نستطيع أن نجد مثالاً لهذا أحسن من تاريخ مسكويه . فقد كان حياته كلها في خدمة وزراء السلاطين البويهيين: المهلبي وزير معز الدولة وابن العميد وزير ركن الدولة، ثم في خدمة عضد الدولة نفسه وابنه بهاء الدولة مباشرة : وربما كنا نتوقع منه أن يكبح جماح نقده لأفعال هؤلاء السلاطين ، ما دام

شرف العائلة كان يرتكز على أعمال أوائلها ، بالرغم من المعارك العنيفة التي نشبت في الجيل الثاني منها . ولكن ليس من أي أثر لمثل هذا التحيز في كتاب مسكويه . والأشخاص الذين منحهم مدائحه التي ربما كانت تميل الى المبالغة هم الوزيران المهلبي وابن العميد، اللذان كانا قد ماتا منذ زمن طويل حين أظهر كتابه ، وروريت أخبار مؤسس دولة البويهيين دون أية محاولة لاخفاء جرائمهم ، ووصمهم باتهام فظيع في حالة معز الدولة . وكان تقديره لعضد الدولة له ما يبرره : فهو يلفت الانظار إلى محاسن إدارته ، التي يظن أنها ترجع إلى تعليم ابن العميد الاول ، ويؤمل ان تتكافأ الخدمات التي أداها للدولة مع الجرائم التي ارتكبها . ونسب الى ركن الدولة فضائل معينة ، يبدو ان هذا السلطان كان يتحلى بها، ولكنه اتهم ركن الدولة بالتضحية بشئون رعاياه في سبيل شعور أحمق (كيشوتي) بالاخلاص لاصدقائه . وجعل من أبي الهيجاء ما يشبه البطل ، وهو من بني حمدان ، الذين كانوا على عداء دائم للبويهيين . والغريب أن المدائح التي أسبغها أبو شجاع على عضد الدولة بعد ذلك بقرنين مدائح مليئة بالتحمس ، على حين كان مسكويه ، الذي كان في خدمته ، بذلك الهدوء والعدالة .

والطبري جامع للروايات اكثر منه مؤرخاً ، ولكن كتابه يمتاز بما يشبه ذلك الحياد . فاذا كان عبر عن اعجابه بمواهب المعتضد العسكرية ، فمن الواضح أنه كان يتحلى بها فعلاً ، وبرغم انه كتب كتابه في عهد ذلك الخليفة ، ليس فيه ما يقارن بتملق ابن المعتز .

وربما كان المرء يتوقع أن يغار الخلفاء العباسيون من أسلافهم ، فيحاولون إخفاء ضعفهم أو انحرافهم عن الطريق السوي ، ولكن من العسير ان نجد شواهد على مثل هذه الرغبة في تاريخ الطبري .

ويجب ان نجد السبب في كون معظم هؤلاء الكتاب ألفوا تواريخهم لا بصفتهم مؤرخين في البلاط ، وإنما بصفتهم اشخاصاً قادتهم أذواقهم الى متابعة هذا الصنف من الدراسات . فكان الطبري نفسه صاحب املاك ، يسّر له أبوه في أوائل حياته الرحلة بعيداً وفي مجال واسع للحصول على المعارف التي أفاد منها بعد في محاضراته ومصنفاته : وعاش فيما بعد على الاجور التي ألف أن تجلبها له قوافل الحجاج الآتية من طبرستان، حيث توجد أملاكه. وكان الدينوري المؤرخ قاضياً ، وتقلد التنوخي القضاء ايضاً . وكان كثير من المؤرخين من الكتاب مثل مسكويه وهلال ؛ وكانوا يعملون في الديوان العام . وكان أبو شجاع وزيراً متقاعداً.

ولفت ريبرا Ribera الانظار الى انه لم توجد منظمة عامة للتعليم الى عصر نظام الملك الوزير السلجوقي ، الذي بنى المدرسة النظامية ، وكان التعليم حتى ذلك الحين متروكاً للجهد الخاص. وقد نضمّ الى ذلك حقيقة أخرى هي أن تدوين التاريخ كان في أغلبه متروكاً للجهد الخاص ايضاً . وقد نسمي المؤرخين معلمي التاريخ بالمعنى اللغوي للكلمة : اي الاشخاص الذين تعهدوا بتهيئة المعلومات في ذلك الموضوع ، لا أشخاص كلفهم شخص او هيئة ما بتهيئتها .

وكانوا اولاً معلمين ، كما رأينا وستتاح لنا فرصة أخرى لنرى ، وكانوا احياناً كتاباً .

وحيثما لم يكن للمؤرخ مورد خاص ، يبدو أنه استطاع ان يعتمد على مكافآت الطلبة الراغبين في الحصول على ما يستطيع ان يقدمه لهم من معلومات ، وإن كان الامر الغريب أنه لم تصل إلينا روايات بهذا الصدد . ولكننا لدينا ما يكفي من الاشارات ليوضح أن أولئك المعلمين الذين كانوا يحلّقون في المساجد او يعقدون الجلسات في منازلهم كانوا عادة يأخذون مكافآت عن ذلك ، وان مد الاثرياء من المعلمين كالجبائي المتكلم تلاميذهم احياناً بالموارد التي تيسر لهم حضور الجلسات من أموالهم الخاصة .

ثالثاً نلاحظ مناهج معينة ابتكرها المؤرخون العرب لضمان الصحة في تسجيل الأحداث . أحدها تأريخها بالسنة والشهر ، بل باليوم . ويصرح بكِل Buckle مؤرخ الحضارة أن ذلك العمل لم يحدث في أوربا قبل ١٥٩٧م . ونجده متطوراً عند الطبري من بين المؤرخين العرب ، وينسب الى مؤلف سابق عليه ، هو الهيثم بن عدي ، المولود ١٣٠هـ ، تاريخ مرتب على السنين . وكان التقويم ضرورياً لمثل هذا الغرض ، ويقال إن التأريخ بهجرة النبي من ابتكار الخليفة الثاني . ويوجد تدوين السنين والشهور في أحد التواريخ الجاهلية التي سأوجه الانظار اليها قريباً . ويقول الجواليقي ، الذي جمع الالفاظ المعربة ، إن معنى كلمة «تاريخ» «التوقيت» وإنها معربة من الكلمة السريانية التي بمعنى «الشهر» . ومن الغريب

أن يكون ذلك كذلك، لأن المادة وان كانت لا توجد في عربية الشمال، يوجد مثيل لها في لهجة الجنوب، في صيغة « وارّخ »، التي يشتق منها «توريخ». وتوجد الحروف نفسها مجتمعة في نقش فينيقي، يرجع الى ما قبل التقويم الاسلامي ببضعة قرون، وترجمه بعض الباحثين بكلمة «ميعاد»، ولكن النص أنقص مما يمكننا من معرفة دلالته الخـــاصة. واذا كانت الكلمة العربية تعني حقاً «التوقيت»، فكونها وليدة الصيغة العربية القديمة «وارّخ» أرجح من كونهـا سريانية، وقلب الواو همزة ليس أمراً شاذاً. ولكن قد يظن ان الكلمة اجنبية ومعناها «السنين» او «الحوليات».

ومن الطبيعي أن لم يحتفظ المؤرخون الاغريق ولا الرومانيون، ولا كتاب الانجيل، بالتواريخ احتفاظاً واضحاً: وكان لدى الرومانيين تقويم ثابت اقـــل فساداً من نظام الاغريق. ومن الواضح ان التقويم الاسلامي، وان كان لا يفي بأغراض الادارة، كان وحده الذي تناسب احسن التناسب مع تسجيل الاحداث، إذ ان عدد الايام في كل سنة كان ثابتاً دقيقاً، وكانت الشهور قمرية كاملة، دون زيادة أي يوم. ولما لم تكن السنة الاسلامية دورة شمسية، كما كان يسميها القدماء، وإنما مجموعة من اثني عشر شهراً قمرياً، يجب أن نعترف بأن كلمة « التاريخ » لابانة الميعاد صحيحة صحة فريدة.

والمنهج الثاني لضمان الصحة هو «الاسناد»، وهو سلسلة الرواة الذين يمكن أن نتتبع آثار الرواية عن طريقهم الى شاهد العيان

الاصلي الذي رواها . وقد صارت هذه الدراسة في ميدان أقوال النبي وافعاله علماً : ويتألف من اختبار الحلقات التي وصل كل حديث عن طريقها إلى رجال أي جيل . وقد تفرع من هـــذه الدراسات دراسات أخرى كثيرة : فلا بـد أن يلاحظ قارىء معجم البلدان لياقوت ان المهمة الحقيقية لجامعه تمكين المحدث من تتبع كل راوية للاحاديث الى موطنه . وكتاب السمعاني العظيم في الانساب ، بمعنى النسبة ، هو مساعدة لتتبع المحدثين . كذلك تفرعت دراسة التاريخ بالطريقة نفسها من دراسة الحديث : فقد كان دارسو الفرعية أولاً هم هم : ثم صار التاريخ فرعـــاً متميزاً تدريجياً ، وصار الاخباري شخصاً غير المحدث، ونضيف إلى ذلك أنه كان اقل منه مرتبة . وبرغم ذلك استمرت فكرة وجوب تتبع كل رواية، كي تكون جديرة بالثقة ، في مجموعة معروفة من الرواة إلى مصدرها سائدة على التأليف التاريخي حتى عصر متأخر. وهناك كتب تبدو محتوياتها من الخفة وعدم الاهمية بحيث يعجب المرء للجهد المبذول في تدوين اسم كل راو والتاريخ والمكان اللذين سمع فيهما الرواية؛ مثال ذلك مصارع العشاق للسّراج، وهو مجموعة من الاحوال التي يفترض ان رجالاً او نساء ماتوا فيها من أجل العشق ، ويسجل فيه المؤلف تسجيلاً صحيحاً دقيقاً التاريخ الذي سمع فيـــه الخبر ويذكر تفاصيل مماثلة عن الرواة . وهناك كتب تسير على نفس الاسلوب واقوالها واضحة الكذب بحيث يعجب المرء من جرأة الكذب . ولكن بالرغم من ان نظرية الاسناد سببت متاعب لا نهاية لهـا أحياناً ، بسبب الابحاث التي

ينبغي القيام بهـــا لتوثيق كل راو ، وإلفهم وضع الاحاديث ، وتقليدها أحياناً في سهولة ، لا يمكن الشك في قيمتها في ضمان الصحة، والمسلمون على حق في فخرهم بعلم الحديث. وفي السجلات القديمة الأخرى ، نضطر إلى الاخذ بمـــا يروى لنا على مسئولية المؤلف : فمن النادر ان يخبرنا المؤرخ الاغريقي او الروماني بمصدر معلوماته . وقد اكثر البحاثة الالمان خاصة من الكتابة عن « نقد المراجع » ، محاولين تتبع روايات الكتاب الانجيليين وغيرهم إلى المصادر التي حصلوا على موادهم منها . وحيثما لا توجد هذه المواد، لا تعطينا هذه المحاولات في أحسن حالاتها إلا فروضاً ترجيحية . أمـــا في آثار الطبري ، والبلاذري ، والتنوخي ، فيوفر علينـــا الكتاب انفسهم هذا الجهد . اما هؤلاء المهتمون بالاخبار أكثر من اهتمامهم بمصادرها فيغفلون عادة الاسناد .

ونعترف بأن عدة اسباب اجتمعت لعرقلة جهود هؤلاء الذين حاولوا ان يضمنوا الصحة عن هذا الطريق . واولها عدم جدارة الذاكرة البشرية بالثقة ، ونجد أمثلة ذلك حتى بين من اشتهروا بقوة حافظتهم . وثانياً الصعوبة التي واجهها كثيرون في ملاحظة الحقائق وبنات الخيـال ملاحظة دقيقـة ، والتمييز بينها : ولذلك يصرح نيتشه Nietzsche بأن الانسان غـير المتحضر يحيا لوناً من ألوان حياة الاحلام،يزوده الوهم فيها بصور لا تمت للواقع بسبب في تفسيره للتجارب.وثالثاً أثرت الفكرة التي تمسكوا بها وتذهب الى وقوع شيء ما فعلاً لان الراوي ذهب إلى وقوعه، أثرت تلك

الفكرة في صدق كثير من سجلات الاحداث . وغالباً ما تبنى إعادة بناء التاريخ القديم ، حتى في ايامنا وفي أوربا الناقدة ، على هذا الاساس . ورابعاً وجد بين المحدثين الذين لا يحصى عددهم جماعة من الاشخاص المستهترين ، الذين شوهوا أو كذبوا عمداً . وبرغم ذلك كله ، تبلغ صحة أشهر المؤرخين العرب مرتبة سامية، وتجعل كتبهم ذات نفع عظيم للبشرية .

الفصل الثاني

التاريخ الجاهلي

لا يدين التاريخ العربي بشيء للتاريخ الاغريقي ، وبالقليل للتاريخ الفارسي ، إن كان يدين له فعلاً ، وذلك أمر واضح : ولكنه يظهر ايضاً مستقلاً عن التواريخ العربية الجاهلية . ولدينا القول الشائع « الشعر ديوان العرب » ، أي سجل اعمالهم . وهذا القول الذي يبدو عليه أنه قديم، يقتضي انه لم توجد سجلات اخرى في الحجاز : ويؤكد هذا القرآن ، الذي كثيراً ما يتهم المكيين بالامية . والنقوش الجاهلية المدونة بالعربية التي جعل منها القرآن اللغة الفصحى غاية في الندرة : من الندرة بحيث تبدو أقرب الى أن تكون تجارب لكتابة لغة لم تكن تستخدم في ذلك الغرض من أن تكون أمثلة لعمل مألوف : لأن أحد هذه النقوش مدون بخط سامي آخر . والنصوص النبطية التي عثر عليها دوتي Doughty في شمال بلاد العرب مدونة بلهجة آرامية مختلطة خلطاً عجيباً بالألفاظ والأقوال العربية . وهناك اقتراب شديد من العربية الفصحى في بعض النقوش الدينية confessionad التي عثر عليها في

جنوب بلاد العرب مدونة بالخط الحميري أو العربي القديم ؛ أما النقوش الكثيرة الاخرى التي عثر عليها الرواد في شمال بلاد العرب فمدونة باللهجات الاخرى، ولها أهميتها العظيمة لتنوع الخطوط المستعملة ، ولكنها قلما تدل على وجود أدب .

كذلك لا تدل خصائص الخرافات الجاهلية المدونة في امثال كتاب تاريخ مكة للأزرقي ، وتواريخ الطبري وياقوت الجاهلية ، والمجموعات الكثيرة المحفوظة في كتاب الاغاني ، لا تدل على وجود ما يستحق أن يسمى تاريخاً . بل إن الوثائق التي نجدها أحياناً منسوبة إلى ذلك العصر ، تثير قدراً كبيراً من الشك . وقد أدخل الدينوري المؤرخ واحدة من هذه الوثائق في تاريخه . فقد ارسل من يلقب الكرماني ، في اواخر العصر الاموي ، الى احد ابناء أبرهة بن الصباح، آخر ملوك حمير (كما يقول) ، وكان يقيم في الكوفة ، يسأله ان يعيره صورة المعاهدة التي عقدت بين ربيعة واليمن في العصر الجاهلي ، فأرسلها اليه : فقرأها الكرماني على أشراف ربيعة واليمن . والوثيقة مسجوعة ، وتحتوي على إشارات الى شعائر وثنية مختلفة ، وان بدأت بالعبارة « بسم الله العلي الاعظم ، الماجد المنعم » ، وتستشهد « الله الأجل ، الذي ما شاء فعل » . ويسمى الملك الذي عقدت المعاهدة أمامه تبع بن ملكيكرب : ولا تبين علاقته بالمتعاهدين .

وتاريخ الدينوري ، كما سنرى هنا ، قليل القيمة ، اذ ان هذه الوثيقة ليست اقدم من المؤرخ كثيراً ، مثلها في ذلك مثل كثير

من الاشعار والرسائل التي يستشهد بهـــا في اخباره ، فيا يبدو : وحقاً يشك في صحة نسبة الكتاب نفسه الى الدينوري. والصعوبات التاريخية المتعلقة بهذه الوثيقة لها خطرها ، حتى ولو كان ما بها من آثار صحيح ، حين تقرر كيف خلطت القبائل المتحالفة دماءها بالخمر ، ثم شربهـــا الفريقان كلاهما ، وجزت نواصيهـا ، وقلمت أظافرها، وجمعت ذلك في صر، ودفنته تحت ماء غمر : لانه توجد ادلة على انه كانوا يفعلون ذلك لتوكيد المعاهدات . ولكن لا شك ان الامر الذي يثير اعظم الدهشة في هذه الوثيقة التزام السجع في عربيتهـــا الفصحى . كان يجب ان نتوقع وجوده في احدى اللهجات المستعملة في الآثار التـــاريخية الى عهد قريب من ظهور الاسلام . ويثور الشك نفسه في الاحوال الاخرى التي يورد فيها المؤرخون تآليف جاهلية نثرية . ومن الواضح انه في هذه الحـالة لم يذكر الموضع الذي عقدت فيه المعـاهدة ، وان بدا ذلك على جانب كبير من الاهمية . ويذكر الشهر الاصم ، وهو رجب ، ولكن لا تذكر السنة .

واذا تصادف ان كانت هذه الوثيقة صحيحة ، وجب ان نراجع كثيراً من افكارنا : لأن المؤرخ لا يذكر هذا الحلف باعتباره مثلاً وحيداً ورد الينـا من العصر الجاهلي من هذا النوع من الوثائق ، وانما باعتباره امراً طبيعياً ان تحفظ اعمال الجاهليين في موضع ما : ويمكن ان يؤلف تاريخ دقيق ومستمر بعض الاستمرار من مجموعة من امثـال هذا الحلف . وحقاً لا يشكو مؤرخو هذا العهد من

نقص السجـــلات ، كما شكا المؤرخ الارميني موسى الخوريني Moses of Khorene وهم مؤمنون كل الايمان ان الوسيلة الصحيحة لنقل التاريخ هي الرواية لملاحظة غياب الراوي. بل عندما وجدت المدونات من اي نوع ، كان المسلمون أميل الى نسيانها : اذ انهـا تنتمي الى مـــاض ، طرحوه وراء ظهورهم . وكانت المآثر التي دونتهـــا الآثار ، كما سنرى ، مآثر آلهة وثنية ، صارت الآن ما يسميه الاسرائيليون المحظورات . ولكن الاسلام ادى ايضاً الى هجرة واسعة ، وكان ما جلبه المهـاجرون معهم ديناً جديداً ، لا صلة له او على صلة صغيرة بالدين القديم .

وسأوجه الانظار فيما بعـد إلى اول هـذه الاسباب لغموض التاريخ الجاهلي كما يظهر في المجموعات العربية . ولا بد ان السبب الثاني ، وهو التنقل والهجرة ، اسهم إسهاماً قوياً في بلوغ تلـك النتيجة . وعُدّت المدينة موطن المعرفة ، كما نعرف من الامـام الشافعي وغيره : وبرغم ذلك قلما ترجع هذه المعرفة الى مـــا قبل هجرة النبي اليها ، لان ذلك الحادث أدى الى تغيير جوهري في سكانها. فنزح كثير من سكانها القدماء : واكتظت المدينة بالمهاجرين الداخلين في الاسلام . وتلا ذلك سريعاً الفتوح الاولى للخلفاء ، أو صاحبها هجرات قبلية : ولكـن القبائل احتفظت بعزلتها الى درجة ما ولحقبة طويلة في مواطنها الجديدة . ولا بد ان الحالات التي كانت يحتفظ فيها المهاجرون بمدونات يحملونها معهم كانت نادرة ، ان وجدت إطلاقاً . وكان في جنوب بلاد العرب نقوش

تاريخية دون فيها الملوك حروبهم واعمالهم، واحياناً عزائم مجالسهم. والمسألة هي اذا ما كان لديهم ، بالاضافة إلى مدوناتهم على النحاس والحجر التي لا يمكن ان تقرأ الا في المواضع التي نُصبت فيها ، أدبٌ ، اعني نسخاً من النصوص انفسها مدونة على مواد أقل رداءة من السابقة ، من البردى ، والرق ، والسعف . ويومىء رحالة محدث إلى وجود مثل هذه النصوص ، ولكن إيماءته غامضة ولم تُحقق . وقد اعتبر باحث الماني في نقوش جنوب بلاد العرب وجود مثل هذا الادب امراً مؤكداً ، وقد ذكر كتاب الاغاني فعلًا نصوصاً حميرية مدونة على مواد يستطاع حملها : ومهما يكن الامر فيجب ان تترك هذه المسألة الآن دون ان يقرر فيها أمر ما. اما مـا يوضحه اكتشاف النقوش وحل رموزها فهو أن عملية تسجيل الاحداث وُجدت في تلك المنطقة منذ زمن لا تعيه الذاكرة .

ويبدو انه لم يعن بهذه الآثار الا اثنان من المؤلفين العرب : الهمداني، مؤلف صفة جزيرة العرب، ورسالة عن الابراج والحصون فيها : لم يصل الينا منها غير جزء صغير : ونشوان الحميري، مؤلف معجم يلقي بين حين وآخر أضواء على لغة تلك النصوص . ولا تزال بعض النقوش التي درسها الهمداني موجودة . وترد بين حين وآخر شواهد من أشعار يظن انها منظومة باللغة العربية الجنوبية عند النحويين ، الذين احتفظوا ببعض الصيغ النحوية التي ايدت النقوش بعضها ، ومن المؤكد صحة بعضها الآخر ، وان لم نجد

نقشاً الى اليوم يحتوي على أمثلة منها . وقـد أحضر ولستد Wellsted وكروتندن Crutenden الضابطان الرحالتان الانجليزيان النسخ الاولى من هذه النصوص الى اوربا . وكان اول من فسرها في شيء من الصحة في ألمانيا ، هو أزياندر Osiander ، الذي نشر كتابه بعد وفاته . ومن الطبيعي انه اقترف عدة اخطاء ، بسبب توحيده بين العبارات السبئية والعربية الفصحى . ولذلك ترجم عبارة خاصة بقوله « لان الله استمع إلى طلبه » ، على حين ان المعنى الحقيقي هو «مأموراً من الكاهن » . وقد جمع العالم الفرنسي هليفي Halévy والرحالة النمسوي جلازر Glaser مجموعات كبيرة من النقوش أو نسخاً منها . وسرعان ما كشف النقاب عن اربع لهجات ، هي لغات الممالك العربيـة الجنوبية الاربعة التي لاحظها الباحثون الاغريق : وبرغم ذلك من المستطاع تصنيف هـذه اللهجات في صنفين ، نسميها مجموعة س ومجموعة ه وفقاً لاستخدام كل من هذين الحرفين في بعض اللواحق التي تلصق في أول الكلمات او آخرها . ومن الممكن تتبع تقدم الدراسة في النشرات البطيئة الظهور التي كانت تصدرها هيئـة المنقبين الفرنسيين French Corpus Inscriptiorum ، والتي تداول الفصل الحميري منها ثلاثـة من المحررين ، وهو الفصل الذي يتوقع العلماء استمراره في شغف .

ولا تزال واحدة من الممالك الرئيسية الاربعة التي تنتمي اليها هذه النصوص ــ لان عدد الممالك كان فعلاً اكثر من ذلك

كثيراً — تحتفظ باسمها باعتباره إقليماً او منطقة من بلاد العرب . تلك هي حضرموت ، المذكورة في العهد القديم . وكثيراً مـــا تذكر سبأ فيه ايضاً ، وان كان موقعها يبدو مخالفاً لمـــا تزعمه النصوص . ومعين اقل شهرة ، ولكنها لها آثارها في المدونات الانجيلية . وعرف الاغريق قتبان ، ولكن التاريخ الخارجي سكت عنهم عند غيرهم . وبرغم ذلك أمدتنا هذه المملكة بنصوص في الآثار اغزر كثيراً مما امدنا به غيرها . وحين تحل مشاكل النحو والالفاظ ، إن حلت ، سنعرف عن منشآت الجمهورية القتبانية اكثر مما نعرفه عن اية دولة أخرى من هذه الدول ، بالرغم من أننا ربما لم نعرف الكثير عن مهارتها الحربية .

وقد نسمي كثيراً من النقوش سجلات تاريخية ، وإن كانت تتألف عادة من اسباب تقديم بعض النذور الى الآلهة . وتستهل مثل هذه النقوش باسم او اسماء مقدمي النذور ، ويليها قائمة بالنعم التي استحق الاله من اجلها النذور . ومعظم هذه النعم شخصي : إكسابهم حب سادتهم سبب عـــام جداً للنذر . وسجل على هذه الآثار كثيراً ايضاً النجاح في المغامرات التجارية ، والشفاء من المرض ، والحصول على الحبوب وموارد المياه .

وتنتمي إلى هـذا الصنف ، النصوص التي من هـذا النوع ، وكثير مما اكتشف اولاً وارسل إلى اوربا ، ومن الطبيعي انـه لا يستطاع اعتبارها تاريخية : وان كان الضوء الذي تلقيه عـــلى الاحوال الاجتماعية بل والسياسية له شأنه في الغالب ، والاعلام

المدونة فيها هــا اهميتها من نواح كثيرة : وبرغم ذلك ، توجد نصوص، طويلة احياناً ، تعالج أموراً لها اثرها في الملوك والمجتمع بأسره ، وتستحق هـذه النصوص ان تسمى تاريخية . ولم يُبْعَد كثير منها فعلاً عن موضعه الأصيل : ونعتمد في معرفتنا به على النسخ والصور . وقد اسعدنا الحظ في احيان قليلة بالحصول على مجموعة كامله من النقوش التي تعالج احداثاً واحدة او مجموعـــة منها: ومن الممكن الافادة من المجموعة الاخيرة في إقامة جداول للدول وفي بعض الاحيان في اكتشاف الاحداث التي ميزت ظهور الدول ، او اتساع رقعتها ، او انهيارها . وهي تعالج الشئون الداخلية خاصة ، كما نتوقع من سياسة هذه الدول؛ فتسجل الوان الكفاح المدمر الناشبة بين المجتمعات العربية ، ولا تتصل بالشئون الخارجية إلا بعد التدخل الحبشي. والغريب انها خالية من الزخرف والمبالغة ، فيما يبدو . ونمثل لذلك بمجموعة النقوش الحميرية ١٤٥٠ C. I. H. : أهدى بعض الاشخاص الذين ضاعت أسماؤهم تمثالاً ذهبياً لمولاهم تَعْلَب ريام، أو تَعَلَّب ريام : ويبدو ان كلمة «مولى» تعني إلهاً صغيراً .

« لأنه اعان بني حاشد في مدينة ناعط على قبائل حمير . تقدم مئتان وتوغلوا في ارض حمير ، حيث ذبحوا رجلًا . ولأن مئة وخمسين تقدموا إلى مارد في أرض ألبان ، حيث اسروا رجلين . ولأن خمسين توغلوا في منطقة دلج ، حيث ذبحوا رجلا . ولأنهم هاجموا الحبشة في أرضه ... وذبحوا رجلًا فيها . ولان جماعة من

البدو ، مئة مقاتل وعشرة ، اغاروا على بَرَكْ ، وقتلوا رجلاً . ولان سادته ، بني همدان ، قدموا إليه خيلهم وبسبب هذه الهدية ذبح فهدين، وجميع . في هذا ... » ثم يتقدم المؤلف الى بعض النعم الشخصية التي انعم عليه بها أو يضرع من أجلها .

وفي .C.I.H نقش طويـل آخر (رقم ٣٣٤) من النمط نفسه ، وقد ضاعت سطوره الاولى ، ولكنه يدون قـائمة بالخدمات التي اداهـا الإله تعلب زيام نفسه . وقد اقام سعد احرس بن غضب ، المذكور بعد ، بعض القرابين ، ولعلها تمثـــال ذهبي ، تشريفاً للاله ، لأنه :

« حماهم في الحملات التي قاموا بها لمعاونة سيدهم شعر اوتر ملك سبأ وريدان ، ابن الهـان نبفان ، ملك سبأ ، ولأنه أنقذ سيدهم شعر اوتر وجنده السبأيين والحميريين ، عندما خرجوا لقتال الاعز ملك حضرموت، وجنده من الحضرميين (؟) : عندما هزيم الاعز وجنده في ذات غراب هزيمة نكراء .

وقد عين شعر اوتر سعد بن غضب للاشراف على معسكر الملك والفريقين من الجند : ووضعه على راس مئتي محارب من بني همملان . فهاجم بنو ردمان المعسكر في يوم تقدمه : ولكن سعد احرس ابن غضب هـاجمهم بكل من اتى معه من بني همملان ، واجلوا بني ردمان عن المعسكر وقتلوهم ، بينما سلم معسكر سيدهم شعر اوتر وفرقتيه .

واعترافاً بالجميل اشفى تعلب ريام خـــادمه سعد احرس بن غضب، من جرحين اصيب بهما عندما هاجم بني ردمان في المعسكر. ولعله يواصل حمايته شعر اوتر في مدينتيه ماوة وسوّار، وينقذه. ثم اطرى سعد احرس بن غضب قوة وقدرة تعلب ريام، رب ترعة، لأن سيدهم شعر اوتر وفرقتيه عادوا سالمين من جميع هذه الاعمال: ومنح تعلب خادمه سعداً عوداً سليماً، وبضائع واسرى رغنائم ارضته. ولعل تعلباً .. الخ»

والغرض الاساسي كما سنرى من هذه النصوص النذر، اي تقديم الشكر لإله خاص: فيدوّن السبب، الذي يصير ذا اهمية تاريخية عندما يكون خدمة ذات صبغة عامة، كما في تلك الحالات التي كانت المساعدة فيها في الحرب. ونقترب في نقش جبل مأرب الثـــاني من الوثائق التاريخية الحقة اذ ان السجل ليس جزءاً من شكران إله. وهو من الحقبة المسيحية، اي عصر الاحتـــلال الحبشي، ويفتتح افتتاحاً مسيحياً*.

«بقوة وجلال ورحمة الرحمن ومسيحه والروح القدس. نقش هذا الاثر ابرهة، ممثل الملك الحبشي رمحيس زبمان، ملك سبأ وذوريدان، وحضرموت واليمن، والبدو في الجبل وتهامة. ونقش هذا الحجر عندما عين يزيد بن كبشة مشرفاً وكانت اعماله مناقضة لتعهده. فقد عين خليفة على بعض القبائل، وقائداً للجند

---

* See Glaser's Reise nach Marib, 1913, p. 148.
انظر جلازر: رحلة الى مأرب، ١٩١٣، ص ١٤٨.

الى جانب الخلافة . وكان معه عدد من القبـائل والامراء (تعدد اسماؤهم) . وعندمـا ارسل الملك جريحاً ذو زنبور الطواف في في المنطقة الشرقية بأمر من الملك ، قتله يزيد » . ويستطرد الخبر بعد ان يصف بعض اعمال يزيد هذا الاخرى : « ثم سمع الملك الملك الاخبار ، واجتمع الاحباش والحميريون ، آلاف منهم ، في شهر ذو قيازان من سنة ٦٥٧ ، وهبطوا في وديان سبأ ، ونظموا انفسهم من سروة على نبط إلى عبران ، وعندما بلغوا نبط ارسلوا رمـــاتهم ضد قبيلة ... علوة ، فاستسلمت » . فعاد يزيد هذا الى الطاعة بعد وقت قصير ، عندما انتشرت الاخبار بتحطم السد . يلي ذلك بعض التفاصيل العسكرية ثم يوصف إصلاح السد وصفاً مسهباً .

وهذا النقش، البالغ ١٣٦ سطراً ، والمؤرخ بـ٦٥٨–٥٤٣م ، مدون بلهجة غاية في الصعوبة . ولعل اضطراب الاسلوب انما هو واضح بسبب معرفتنا النـــاقصة اشد النقص بلغته ، او لانهم لم يكونوا قد بلغوا مبلغ في الفصاحة في تلك اللهجة . وهو يمثل تقدماً على النمط الاقدم ، حيث لم يكن الغرض تسجيل الاحداث ، وانما تعليل تقديم القرابين للاله . وواضح ان غرض المؤلف في نقش ابرهة تسجيل الاحداث الهامة . وجدير كل الجدارة بالملاحظة ان هذه الطريقة في التسجيل غير مأمونة . اذ يذكر الملك ، مؤلفه ، في نقش طويل هام نشر حديثاً ، كيف ازال جميع الاسطر التي نقشها ملك مهزوم في قصوره ومعابده . ولا بد ان

هذه الاسطر كانت تحتوي على سجلات مملكة غير مشهورة ، هي اوسان .

وجدير بالملاحظة ان الاحداث تؤرخ في نقش ابرهة بالشهر والسنة ، دون ان يخصص اي يوم من الشهر . ويبدو ان ذلك يتفق مع الاشتقاق العادي لكلمة «تاريخ» ، التي يفترض الباحثون في أصول اللغة انها آتية من الكلمة السريانية « إرَخ » التي تعنى « شهراً » .

ولمحة واحدة إلى هذه النقوش كافية لتبين لنا لماذا لم يعن المسلمون الاولون بمثل هذه السجلات لماضيهم . إذ ان ما تسجله ليس تاريخاً قبلياً او وطنياً مباشراً ، كما نرى ، وانما النعم التي أنعم بها إله خيالي ، وما قوبلت به من شعائر وثنية . ولا يمكن لاسماء هذه الآلهة نفسها إلا ان تسبب الذعر او التسخيف : ويثير تقديم الصور المشاعر نفسها . وإذا كان حقاً ان اليهودية انتشرت في جنوب بلاد العرب بين العصور الوثنية والمسيحية ، فان مسلك ذلك الدين حيال الآلهة والصور الوثنية من جميع الاصناف لا يقل عداء عن الاسلام الاول : فالجمهور قد تعلم طرح مثل هذه الآثار قبل ان يسود الاسلام بزمن طويل . وتماثلها في الكراهة ، النقوش المسيحية ذات الاهمية التي قلما يستطيع الباحث الحديث ان يبالغ في قدرها : لان من الواضح ان الاستعمار الحبشي لم يترك في جنوب بلاد العرب ذكريات حميدة او شاكرة له : بل كانوا ينظرون في فخر واعتراف بالجميل الى عمل سيف بن ذي يزن المجيد

في طرد هؤلاء الغزاة بمعونة الفرس : ويظن ان عبد المطلب جد النبي رأس وفداً الى اليمن لتهنئة الفاتح ، ويدعى الباحثون الاحتفاظ بخطبة قالها في تلك المناسبة. ولكن العلم الحديث الذي لا يخاف تجدد اية عقيدة وثنية مهملة يعلق قيمة عالية على الوثائق التي طرحت في اجواء الغموض عندما ظهر الاسلام بحكم طبيعة الظروف عندئذ . وفي الامكان ، بسبب العدد الكبير من النقوش التي عثر عليها ونسخت في جنوب بلاد العرب ، من ممالك مختلفة وأسرات مختلفة ، ولا زال كثير منها ينتظر النشر ، على حين من المرجح ان غيرها لا يزال ينتظر من يكتشفه؛ في الامكان جمع تاريخ تلك المنطقة بطريقة لم يكن من المستطاع الاستشراف إليها قبل ان تبدأ هذه الاستكشافات . وجدير بالملاحظة ان الالفباء الحميرية ، كما تسمى ، يبدو انها كانت مستعملة في جميع انحاء شبه الجزيرة العربية ، إذ عثر حديثاً على نقوش مدونة بذلك الخط في شمال شرقي بلاد العرب ، بجوار الكويت ، وفي الشمال الغربي منها ، بجوار مدائن صالح ، التي اكتشف فيها كثير من الخطوط . ومع ذلك لم تكتشف نقوش تاريخية ذات قيمة شبيهة بقيمة التواريخ إلا في جنوب بلاد العرب . ولعل سبب ذلك ان التنظيم السياسي لتلك المنطقة كان اكثر تطوراً كثيراً، وان العمليات كانت تجرى فيه على نطاق اوسع من الاقاليم الاخرى في شبه الجزيرة ، التي نجد ان النصوص التي عثر عليها فيها عبارة عن نقوش متواضعة النطاق من شواهد قبور او قوائم بأعلام او نذور .

واذا عددنا اعمال الملوك والمجالس العامة تاريخاً ، فقد نضم الى

النقوش التاريخية ما يسجل منها التعيينات على اختلاف انواعها ، كتعيين اراضي للآلهة او مزايا لطبقات خاصة ، او جباية الضرائب او تنظيم الحقوق في المياه. ولسوء الحظ ان اللغة في معظم الاحوال تواجهنا بصعوبات خطيرة جداً : فليس لدينا نحو ولا معجم ، وإنما نعتمد على صدفة ورود كلمة ما في عدد كاف من النصوص المختلفة ليمكننا من اكتشاف معناها مع شيء من التأكد . اضف إلى ذلك ان مجال هذه الدول الجاهلية غير يقيني جداً، بسبب تغير الاسماء المحلية ، وان كنا لا نملك بعض النقوش حسب ، عن إحدى الممالك ، وهي اوسان، بل لدينا مجموعة من التماثيل الصغيرة المنقوشة التي تحفظ صورة عدة افراد من الاسرة المالكة . ويلاحظ سترابو الجغرافي ، الذين ندين له بوصف حملة اليوس جلوس Aelius Gallus الفاشلة ، سرعة تغير الاسماء في بلاد العرب وما ينتج عن ذلك من صعوبات جغرافية .

وبقيت المواد لترجع إليها التواريخ ، ما بقيت هذه النقوش ، وما عرفت اللغة المدونة بها ، وان لم تؤلف تواريخ فعلية . وكان لدى عرب الجنوب في الجاهلية حقبة ، كما رأينا ، ذات اهمية اولية لتدوين الاحداث . ورأى جلازر Glaser انها معاصرة لسنة ١١٥ ق م. ولا شك انها حقبة هامة في تاريخ الدولة السبئية . وعلى الرغم من عدم تأريخ كثير من النقوش التي لاحظناها ، نستطيع الحصول على الاتصال والاستمرار من اسماء الملوك ، الذين يذكرون آباءهم عادة، واجدادهم احياناً، بل اجدادهم الاولين.

وبما قيل ان التاريخ الممكن كشف التام عنه من هـــذه النصوص سيكون في بعض الجوانب اقل قيمة مما تمدنا به التواريخ الاسلامية ، واكثر اختلافاً في بعضها الآخر. وتدل النصوص التي مثل بها على عمليات تافهة : فان كانت عبارة « ذبح رجلا » صادقة تماماً، لم تكن الحملات المدونة اكبر من الغارات القبلية التي تسجلها الحماسة وما شابهها من كتب . وقد الفنا ان نرى قوائم الخسائر في الحروب الصغيرة بين الجمهوريات الاغريقية القديمة تضم المئات او العشرات على الاقل. ولكن النقوش القتبانية التي نشرها وفسرها رودوكناكس Rhodokanakis تكشف عن نظام سياسي معقد لا يوحي البتة بأي نظام قبلي بدائي. إذ نقرأ فيها عن مجالس (للرأي) تبصرية وتشريعية، نجد امثالها في منظمات الدول الهلينية. ويقتضي ما يسميه رودوكناكس « مبدأ الاعلان »، اي عملية نقش اعمال هذه المجالس على الحجر ووضعها حيث يمكن قراءتها قراءة عامة ، يقتضي اننا نتكلم عن امة قارئة ، ذات منظمات سياسية تكشف عن صنف من التقدم لا يمكن بلوغه الا خلال مراحل لعله من الممكن ان نستعيد قصتها .

وبينما تتيح هـــذه النقوش الفرصة لاجراء ابحاث مغرية في فروع مختلفة من القانون والسياسة، تمدنا ايضاً بمعلومات نفيسة عن اديان الدول القديمة ، وتلقي بعض الضوء على ما وقع في المناطق الجنوبية من شبه الجزيرة من تمهيد للاسلام . وعندما ظهر البحث عن القديم في العصر الاموي والعباسي الاول ، بذلت المحاولات

لاعادة تبين العقائد الوثنية القديمة ، ويمثل تلك المحاولة كتاب الاصنام لابن الكلبي ، الذي سيقابلنا فيما بعد . ولم تكن الآلهة المعبودة في جنوب بلاد العرب هي الآلهة المعبودة في الحجاز، التي نستطيع ان نجد بعضها في النقوش النبطية في الشمال . وتتردد امامنا، في نقوش الجنوب ، الآلهة، التي لا نستطيع النطق بأسمائها ، وطبقات الآلهة ، التي لا نستطيع ان نتبين مرتبتها النسبية الآن . ويعزى إليهم ، كما قد رأينا ، النجاح في الحرب : ومن ثم تسجل الحوليات، كما لاحظنا، القرابين او الآثار التي اكتسبتها بخدماتها. ومن الممكن استنباط اشياء عن نظام العقائد ؛ وعن الاشخاص الاوثق اتصالاً بالعبادة من غيرهم ؛ وعن وحيهم ، وعن الطريقة التي يحصل بها على اجوبة الاسئلة : وهي احياناً شديدة التعقيد ، دالة على الصلات الغامضة بين الاضرحة المختلفة . ويبدو ان الآلهة كانت هنا اجداداً للملوك كما كانت الآلهة في بلاد الاغريق .

واية مجموعة من المعلومات التاريخية يمكن استخراجها من نصوص لم يقصد منها ان تمدنا بها ! وسيادة الفباء واحدة ، مهيأة تهيئاً بارعاً للغة التي تستخدمها ، في جميع شبه الجزيرة كافية لأن تمدنا بنتائج هامة . فلا بد ان جميع شبه الجزيرة وقع في زمن ما تحت سيطرة امة متعلمة واحدة ، او لا بد ان امة ما حصلت على التفوق الفكري فثقفت غيرها . وما عرفه الاغريق القدماء عن بلاد العرب حصلوا عليه إما من قصص الرحالة او من الارتياد العلمي المنظم في عهد الاسكندر الاكبر ، وقد حصلوا على معلومات ابانت النقوش انها صحيحة صحة عجيبة . ولكن ما عثرنا

عليه من عملات وتماثيل صغيرة يدل على اتصال ببلاد الاغريق القديمة اوثق مما ذكر المؤرخون الاغريق . ويتجلى تأثير اثينا في العملات المكتشفة في اليمن : وهو ظاهر في فن النحت ، الشبيه بالفن السابق على القديم pre-classical اكثر من شبهه بالفن القديم Classical . وتشيع فيه صور الملوك ، ونقوش الحيوانات والطيور ، وبعضها حسن النقش : ولكننا لم نجد بعد صوراً لآلهة وإلاهات . وتمدنا بقايا المعابد والقصور ، والنقوش التي كانت عليها ذات مرة ، بآثار من الآثار المعمارية المتصورة على نطاق واسع .

وتحل الاعلام في النقوش كثيراً من المشاكل التي تواجه دارس التوراة . إذ تقابلنا هنا الفاظ وعبارات ، لم تعرفها العربية الفصحى ، ولكنها ترد في لغة فلسطين القديمة . وتجد الاسماء التي فقدت معانيها في السجل الانجيلي ، وفسرت احياناً تفسيراً خاطئاً ، شرحاً بسيطاً هنا . وتوجد الاسماء القديمة للآلهة العربية متوارية عن الانظار في الاسماء العبرية التي لم يشك في وجودها فيها إطلاقاً : بل تمدنا اسماء العهد الجديد نفسها بمثال لهذا . فقد سميت كلُوبا او حَلْفَى باسم إله وثني شأنها شأن مُرْدَخاي .

ولكن يأتي عهد ، كما رأينا ، تختفي فيه الآلهة القديمة من النقوش ، ويظهر عوضاً عنها اسم الرحمن الدال على التوحيد ، والسائد على بعض السور الاولى من القرآن ، وترد عبارات مسيحية في نقش متأخر ، قريب من مبدأ الاسلام . والبقايا القليلة التي رأت الضوء من النقوش التوحيدية ذات اهمية بالغة لسبقها

الالفاظ القرآنية خاصة ، وان لم يظهر على وثنية النصوص القديمة ما يربط بينها في وضوح وبين الوثنية التي يعارضها القرآن. وتظن الروايات المأثورة أن التوحيد الذي سبق المسيحية في جنوب بلاد العرب كان يهودية ، بـــل تحتفظ السجلات المسيحية الاغريقية بمناقشات دارت بين المسيحيين واليهود ، يظن انها كانت في تلك المناطق . ومع ذلك يبين توحيد النقوش عن شبه قليل باليهودية : ولا نستطيع ان نبرر ذهابنا الى انها دين واحـد . ولعل سيادة دين توحيدي ما في جنوب بلاد العرب قبل فرض الغازي الحبشي المسيحية هي التي تفسر السهولة الظاهرة التي اعتنق بها الاسلام في هذه المنطقة .

وإذن فلدينا حق تصنيف مؤلفي هـذه النصوص القديمة مع المؤرخين العرب ، وان لم تكن اللغات التي استعملوها عربيـــة المسلمين، ووجب ان نستنبط ان مؤلفيها كانوا يرفضون ان يطلق عليهم لفظ العرب ، الذي يبدو أنه كان يطلق عندهم على البدو . اما النقوش المؤرخة فترجع ، كما قـــد رأينا ، الى حقبة حديثة نسبياً ، واختلفت آراء الخبراء في مدى رجوع هذه النصوص إلى اكثر من ١١٥ ق.م. كما اختلفت في تتابع ومجال الامبراطوريات او الدول التي اكتشفوا وجودها ، وترك بعضها آثار غامضة في السجلات الانجيلية او القديمة أو النقوش المسمارية .

ولا استطيع ان اتخيل ميداناً للبحث اكثر جاذبية للباحث المسلم الذي يرغب ان يكون رحالة ورائداً من جنوب بلاد

العرب . ومن الممكن ان العراقيل التي يقال إنهـا تواجه الرائد الأوربي في ذلك القطر مبالغ فيهـا : فلا تتفق أقوال الرحالة في تلك المسألة . ولا شك ان الرحالة المسلم لن يعوقه كثير من العقبات التي يشكو منها بعض الرحالة . ومن المتعذر ان نظن ان الرحالة الاوربيين القلائل الذين زاروا هذه المنطقة استطاعوا ان يأتوا على ذخائرها الاثرية ، الكثيرة المتنوعة ، بمقارنتها بما تركته مدن الشام الفينيقية او قرطاجنة العاصمة القديمة مثلاً . فلقد خلفت دولة قتبان الغامضة وحدها من آثار منظماتها ، وقوانين مجالسها النيابية وأعمال ملوكها أكثر مما خلفته صيدا المشهورة او قرطاجنة الاكثر شهرة . وإن السجل المحفور على حجر او نحاس يتصل به ما يجعلنا اوثق اتصالاً بالماضي من الرواية المنقولة شفاهاً من جيل الى جيل او التي ينقلها كتبة متعاقبون من نسخة الى نسخة . ويقول شاعر ، مقارناً بين مدائحه والجوائز التي اخذها او يؤمل أن يأخذها :

وفي تلك الاحوال ، لم تضع جوائز شكر الجميل ، وان وجهت توجيهاً خاطئاً ، وانما بقيت على العصور .

الفصل الثالث

بواكير التاريخ العربي

يكشف الحديث المشهور «الاسلام يجب ما قبله» عن السبب الرئيسي لمـــا يغلب على علاج المؤرخين العرب للعصر الجاهلي من غموض وشك . وتروى القصص عن الداخلين في الاسلام الذين سألهم عمر ان يرووا بعض التجارب الجاهليـــة او ينشدوا بعض الاشعار الجاهلية ، فكان جوابهم « لقد جب الله ذلك بالاسلام ، فلم الرجوع ؟ » وقد وجدت هذه الفكرة التي تذهب الى ابتداء حقبة جديدة ، وان كل مـا سبقها يجب ان يطويه النسيان ، في اوقات أخرى ، في الثورة الفرنسية مثلاً. ويبدو ان هذه الفكرة سيطرت عليهم في الاسلام. وكان ذلك سبب عدم معرفة المؤرخين العرب معرفة عملية بالتاريخ المهم الذي تكشف عنه النقوش ، والذي احتفظ به قدماء الرومان الاغريقيين . وكانت هزيمة حملة اليوس جلـّوس Aelius Gallus التي دبرها أغسطس عملاً في عظمة هزيمة حملة نابليون على روسيا. وقد عزت السلطات الفرنسية فشلها في الحالة الاخيرة الى المناخ : أما الشجاعة الروسية فلا دخل لهـــا

فيه . ولكننا نملك وصفاً ورسياً للمسألة ، يروي قصة مخالفة . أما في حالة الغزو الروماني فليس لدينا الا الوصف الروماني ، الذي يزعم ان العرب لم يبدوا اثراً للمقاومة : وانما اهلك الغزاةَ المناخُ والاحوال الطبيعية لبلاد العرب. ولو كنا عثرنا على وصف عربي ، لكنا وجدنا قصة مخالفة. وعلى أية كان لا بد ان نتوقع ان يحتفظ العرب في ذاكرتهم بنصر بهذه الشهرة: ولكن الامر ليس كذلك. وأخبار الحوادث التي وقعت قبيل عصر النبي غامضة ومشوهة : واذ كانت النقوش التي عثر عليها جلازر في مأرب، من عهد الحكم الحبشي ، تسجل إصلاحاً للسدّ الذي كان اذ ذاك متهدماً ، فمن الواضح ان الاهمية التي أسبغها كتاب العرب على انهيار ذلك السد مغرقة في المبالغة . ومن المحتمل ان يؤدي تدهور مملكة الى انهيار خزان ، ولكن ليس من السهل أن يسبب الامر الاخير الامرَ الاول ، كما يقول مؤلف. ومن الواضح ان الخرافات التي تدعي وجود مستعمرات يهودية في يثرب وليدة الخيال : ولا يستطيع ان يقطع احد ما اذا كانوا عرباً تهودوا – وهو ما لعله يتفق مع الآيات القرآنية – او يهوداً تعرّبوا . وقد تناولت عدة رسائل تاريخ مكة ، وتاريخ المدينة ، ولكننا نحب ان نشير الى انه لا يعرف شيء عنهما قبل عصر النبي . اما كتاب الازرقي ، وان كان قديماً ، فمجموعة من الخرافات .

ويوجد الى جانب الحديث القائل بأن الاسلام يجب ما قبله مبدأ آخر عارض الاحتفاظ بالسجلات: ذلك هو النظرية الذاهبة

الى عدم تدوين اي كتاب سوى القرآن. وقد جمع كاتب اسباني هو ابن عبدالبر ، الاحاديث الواردة في هذا الموضوع: ومعظمها، الذي قدمه اولاً ، يمنع التدوين . وينبغي ألا يوجد غير كتاب الله: وفي احسن الاحوال ان يدون انسان شيئاً ليساعد ذاكرته، فاذا ما حفظه عن ظهر قلب ، وجب عليه إحراقه . وقد اشير على الخليفة الثاني بتدوين « سنن النبي » : فاستخار الله شهراً كاملاً ، ثم رفض . وقد رأى الخليفة الاموي القدير عبدالملك بعض أخبار مغازي النبي مدونة على صورة كتاب في يد احد ابنائه ، فأمر باحراقها . وأمر الصبي بقراءة القرآن ومعرفة السنن : وابى عليه اي لون آخر من الدراسة .

وروى ابن عبد البر بعض الاحاديث الاخرى التي تعارض الأحاديث السابقة : وتذهب إلى ان النبي نفسه اوصى بالتدوين . ولكن الرأي الغالب كان في جانب المنع: وكان ذلك سبب تأخر نشأة التأليف النثري . ويذكر ابن عبد البر سببين للمنع . اولهما قوة ذاكرة العرب ، التي جعلت تقييد المادة الادبية على مادة ما امراً غير ضروري ، ما دامت ذاكرتهم من القوة بحيث تستطيع الاستغناء عن مثـــل هذه المساعدة . وثانيهما الخوف من إنتاج منافس للقرآن . ونستطيع ان نحذف السبب الاول منهما. فليس هناك مـا يدعونا الى ان ننسب لعرب الشمال والوسط ذاكرة اقوى من ذاكرة الجنوبيين ، وقد بقي اهل اليمن – كما رأينا –

* انظر مختصر جامع بيان العلم (القاهرة ١٣٢٠) .

يدونون النقوش التاريخية قروناً . والمرجح ان السبب الثاني ، الخوف من منافسة القرآن ، هو السبب الحقيقي الكافي . وقد اتخذوا ذلك مبدأ استعاروه من اليهود[1] ، الذين منعوا تدوين الكتب ، معتمدين في ذلك على ما فهموه من احدى فقرات سفر الجامعة ، ولم ينتجوا ادباً مكتوباً قروناً غير العهد القديم .

ويجب ان نضيف الى هذين القولين اعتبارين آخرين . بازدياد اهمية الحديث ، ظهرت طبقة الحفاظ ، الذين كانت صناعتهم البحث عن المعرفة الصحيحة بالاحداث . وكان من الممكن ان تسوء احوال هذه الصناعة بصورة خطيرة ، لو شاع بين الناس انه من المستطاع الحصول من مجموعة من الكتب على المعرفة التي يكد آخرون كل الكد في سبيل الحصول عليها . ونحن على يقين ان شيوخ نيسابور او اصفهان كانت لديهم المعلومات التاريخية التي لا يمكن الحصول عليها الا منهم ، وكان ذلك قبل انتشار فكرة التدوين ؛ فاذا ما تيسر الحصول على جميع هذه المعرفة من الكتب ، كسدت بضاعة هؤلاء المعلمين . وعجيب الا تؤثر تلك المدونات الكثيرة التي اخذت تتجمع بعد قيام الدولة العباسية في صناعة الحفاظ . وبرغم ذلك ، كان اكثر مؤلفي الكتب من اهل هذه الصناعة أنفسهم ، وقد وصل الطرفان الى اتفاق احتفظا به عدة قرون . هذا الاتفاق

---

(١) أستبعد استعارة العرب ذلك المبدأ من اليهود ، وانما كرهوا التدوين خوف اختلاط المدون بالقرآن ، وشغله المسلمين عن دراسة القرآن وحفظه ، وغير ذلك من الاسباب العربية البحتة — المترجم .

هو « الاجازة » ، التي تلزم الا يأخذ القارىء الكتاب الا عن مؤلفه شخصياً او عن ثقة : وهكذا وفد الناس في عصر الطبري عليه لسماع التاريخ والتفسير منه شخصياً ، واننا لنعرف اسماء رجال بقوا الروات الثقات للتاريخ جيلين بعد وفاته . ولم يثقوا بالمعرفة التي تأتي عن طريق الكتب بدون رواية . ويروى خبر سيقابلنا ان المدائني العلامة فقد شهرته لتصحيفه كلمة ؛ إذ استنتج انه عرف الخبر بالقراءة لا الرواية . وكانت شهرة الرجال تعتمد على ما تحتفظ به ذاكرتهم ، لا ما يقيدونه بالتدوين . وقد تفوق على الطبري نفسه رجلٌ اقل شهرة منه كثيراً ، هو القاضي ابن البهلول ، إذ اخذ الاثنان ينشدان الاشعار ، فظهر ان ذاكرة الطبري اضعف من ذاكرته كثيراً . وقد جمع رجل البلاط المؤرخ ، محمد بن يحيى الصولي ، مكتبة كبيرة ، كان يستطيع ان يخرج منها فوراً المجلد الذي يحتوي على جواب اي سؤال يوجه اليه . ولكن عمله هذا جعله هدفاً للاشعار الهاجية الساخرة ؛ إذ ينبغي ان يكون قادراً على الاجابة من الذاكرة بدون الرجوع إلى الكتب .

ثانياً ، ربما كان سبب عدم الثقة بالكتب المدونة الذي بقي زمناً طويلاً كثرة الانتحال والوضع . وقد سجل المؤرخون عدة حالات منه : فقد كشف الشعبي الفقيه عن وضع الرسالة التي ادعى المختار بن ابي عبيد ان محمد الحنفية ارسلها اليه لتزكيته امام شيعته : وتقول رواية إنه اقام رأيه هذا على حداثة العهد بختم الرسالة ،

وتقول أخرى ان محمداً يلقب فيها بلقب لم يطلقه على نفسه. وروى مسكويه ان المهلبي الفاضل الكفء نفسه لم يكن يتنزه عن الوضع إذا ما خدم هدفه. ويروي المؤرخ نفسه خبراً مطولاً عن وضع الوحي المنسوب الى النبي دانيال، حتى استطاع احد المرشحين للوزارة ان يفوز بمنصبه بواسطة ذلك الوحي الموضوع: وتروي تفاصيل العملية التي يمكنه القيام بها لإعطاء الكتابة الحديثة مظهر القدم حتى لا يتيسر كشفها. وقد حصل ابن البواب الخطاط على الشهرة بتقليده خط ابن مقلة تقليداً متقناً حتى ان احداً لم يكن يستطيع ان يميز بينه وبين ما كتبه ذلك الخطاط العظيم. وتبين الشهرة التي اكتسبها الخطيب البغدادي لكشفه زيف اتفاق كان يظن ان النبي امر بكتابته ليضمن ليهود خيبر بعض الحقوق، تبين انه وجد خبراء قليلون بهذا النوع من النقد. وتروى قصة شائعة تمثل كرم الوزير ابن الفرات ان احد الناس وضع عليه رسالة يوصي فيها أحد حكام الاقاليم به، فنفذ طلبه، ولكنه ارسل الى الوزير يعبر عن شكه في صحتها. فأعلن الوزير ان لا اساس لشكوكه، واعترف بصحة الرسالة: ثم ادخل الرجل الواضع في خدمته.

وتتبين من كثرة الروايات التي كان المؤرخون يذكرونها من الخطبة او الرسالة الواحدة كثرة فائقة، أنهم كانوا يفضلون الرواية الشفهية على المدونات، في تلك الحقبة التي ظهر فيها أعاظم المؤرخين. ومن اشهر خطب العرب تلك التي ألقاها الحجاج المشهور بالطغيان

عند دخوله الكوفة . ولدينا من هذه الخطبة اربع روايات متعاصرة تقريباً ، في كتب الجاحظ ، والمبرد ، والطبري ، والبلاذري . اما المؤلفان الاولان فهمهما الجانب اللغوي من الخطبة ، واما الاخيران فالجانب التاريخي . وتختلف الروايات الاربع ، مع اتفاقها في أكثر مادة الخطبة ، اختلافاً كبيراً في ترتيب العبارات ، وفي كثير من الجمل ، وحين يقارن بعضها ببعض يظهر في كل منها بعض الحذف والاضافة . وتوجد وثيقة غاية في الاهمية باعتبارها اساساً للقضاء ، تتضمن تعاليم الخليفة الثاني إلى قاض عيّنه . ولدينا عدة نسخ من هذه الوثيقة الموجزة ، ولكن بينها جميعاً خلافات كبيرة . ولو نسخ رواة هذه الوثائق من نصوص قديمة لما عذرناهم لهذه التغييرات التي اجروها إما إهمالاً وإما تحكماً ، ولكننا نعذر هذه الخلافات إذا كانت ترجع الى الرواية الشفهية . ويخبرنا المؤلفون الذين يذكرون نسخاً من رسائل ربما كانوا يمتلكون اصولها انهم يروونها عن الذاكرة .

وإذن فالنظريات التي كانت تقف عقبة في سبيل التدوين هي (١) الحديث بأن الاسلام يجب ما قبله ، (٢) المبدأ القائل بوجوب عدم وجود كتاب مدون غير القرآن ، (٣) ان صناعة الحفاظ جعلت الكتب المدونة غير ضرورية ، (٤) ان الوثائق المدونة كانت غير موثوق بها .

وقد تغيرت جميع هذه النظريات بمرور الوقت . (١) فجعل تفسير القرآن بعض المعرفة التاريخية امراً لا يمكن الاستغناء عنه .

فقد كان القرآن كثيراً ما يعالج الاحداث الجارية ، وخاصة في الآيات المدنية : ويوجد الآن فرع كامل يسمى «مناسبات الآيات» يقوم على تحديد المناسبات التي أوحيت الآيات فيها . والنصوص التي تعالج الاحداث الجارية عامة الى درجة كبيرة ، وتتجنب ذكر الاعلام : فلم يكن يدرك معناها الحق إلا من أوحيت اليهم . وهكذا لا يصرح في السورة التي تتناول تهمة باطلة وجهت الى عائشة بكنه التهمة ، ولا من روّجها . وكانت المسألة مشهورة إذ ذاك ، ولكن لا بد من معرفة التفاصيل كي نفهم السورة ، بعد جيل . ووجد المفسرون في السورة نفسها آيات تعالج احداث يفصل بين كل منها سنين : فمن الضروري أن يكون لدى المرء بعض المعرفة بالأطوار الرئيسية في حيـاة النبي ، ليقرأ القرآن ويفهمه . كذلك يوجد في السورة الثالثة آيات يروى انها تنتمي الى الحقبة التي تلت بدراً مباشرة ، والتي تلت احداً مباشرة ، وغزوة الخندق ، ووفد نجران الذي أتى الى المدينة بعد ذلك بزمن طويل ، فالمفسر الذي يريد ان يشرح قوة الآيات مضطر الى الحصول على بعض المعرفة التاريخية او جلها .

ولكن القرآن يحتوي ايضاً على كثير من اخبار التاريخ القديم ، ويكثر في هذه الاحوال ذكر الاعلام ، ولكن القارىء يسره في كل حالة ان تذكر معلومات إضافية . وعلى اية حال ، يسره ان يستطيع ترتيب الحوادث ترتيباً على صلة زمنية ما بعصره . ولكنهم على الاقل لم يشجعوا الرجوع الى الكتب التي في ايدي اليهود والمسيحيين ، إن لم يكونوا منعوه فعلاً . وسنرى ان محمد

ابن اسحاق ، مؤلف سيرة النبي ، جلب على نفسه اللوم لاشارته الى هذه الكتب . وبرغم ذلك كان الداخلون في الاسلام من اليهود والمسيحيين على اية حال ميالين الى الانتفاع بما علق بذاكرتهم في إشاراتهم الى الاحداث المذكورة في القرآن ، وفعلوا ذلك بصورة بارزة . وإننا لنعرف اسماء الاشخاص الذين قاموا بذلك في زمن مبكر .

(٢) وكان ترتيب المسلمين طبقات الرجال بحسب الاسبقية في الاسلام احد الاسباب التي جعلتهم يرتبون اخبارهم في التاريخ الاسلامي ترتيباً زمنياً. وكان الوقت الذي قضاه كل فرد مسلماً ، هو اساس تصنيف المسلمين في تقدير العطاء المفروض لكل منهم في ديوان العطاء . ويوجد كثير من الاشارات الى هذه « السابقة » . وفي التحكيم المشهور خاف المدافع عن معاوية ان يعترض على توليته لانه لا « سابقة » له ، إذ لم يدخل في الاسلام الا عندما فتحت مكة . ولكن قيل من ناحية اخرى انه صهر النبي ، ولا شك ان ذلك ارضى الرأي العام عنه . وقد حفظ ابن اسحاق قوائم بمن غزوا المغازي مع النبي ، ولا شك ان ذلك لاهميتها في ذلك الغرض . وبرغم ذلك نجد في اخبار ابن اسحاق نفسه بعض الشكوك في ترتيب الحوادث ، ونجد شيئاً من عدم الاطمئنان الى الامر نفسه ، في كتب الامام الشافعي ، الذي كان من المشغوفين بالبحث ، وعاش طويلاً في المدينة ، مع اهمية ذلك في اثبات الترتيب الزمني لآيات القرآن .

(٣) اعطيت المدن والاقطار المفتوحة حقوقاً مختلفة وفقاً لما بذلته من مقاومة في وجه الفاتحين . واحياناً ادى قيام الثورات بعد الخضوع الى تغيير هذه الشروط ، كما في حالة مصر . ومن الواضح ان المحافظة على مثل هذه الحقوق يتعذر ، ان لم يستحل ، بدون التأريخ المستمر للحوادث. ويبدو ان الامور كانت ميسرة في العصر الاموي قبل ان تحفظ نسخ امثال هذه المعاهدات في العواصم ، او فيما يشبه دار المحفوظات . فكانت المناسبة حينئذ عرضية . وكان من المستطاع حين يقتبس من المعاهدات، الاقتباس منهـــا شفوياً ، وكان ذلك سبب وجودنا عدة اخبار مختلفة كل الاختلاف تسجل مثلاً المعاهدة الهامة التي اتفق فيها علي ومعاوية على التحكيم : اذ ان الشهود مختلفون. ومن الشاق الحكم على صحة المعاهدات او الصكوك المذكورة ، بدون المعرفة التاريخية .

وامثلة هذه الحاجة في فتوح البلدان للبلاذري. وهكذا عندما وجدوا انفسهم يواجهون مسألة كيف يعاملون اهل قبرص بعد ثورتهم حينما استشار الوالي الذي اخضعهم عدداً كبيراً من الفقهاء، كان من الواضح ان هؤلاء الفقهاء اضطروا الى فحص المدونات ليعرفوا كيف فتحت قبرص، وعلى اية شروط ، وكيف عولجت امثال هذه الحالة من قبل . وكانت السوابق التي احتاج اليها الفقهاء لا يستطاع الحصول عليها الا من كتب السجلات او من الاشخاص المشتغلين بحفظها في ذاكرتهم. وكانت المدينة مركز هذه المعرفة، حيث اخذ الخبراء يظهرون فيها بعد وفاة النبي بوقت قصير ، حين ازدادت الحاجة الى مثل هـذه المعرفة ازدياداً سريعاً . وكان

القرآن دقيقاً في وصف اهل المنطقة التي انزل فيهـا بالامية ، حتى ان اللغـــة العربية لم تستعمل في الدواوين إلا في منتصف العصر الاموي ، في عهد عبدالملك بن مروان : فكان « الموظفون الداعون » حتى ذلك الوقت من اهل الاقطار المفتوحة بالضرورة، فواصلوا العمل باللغة والاساليب التي كانوا يألفونها . ويستطيع المرء ان يتخيل ان اتخاذ العربية الحجازية لغـة رسمية في دواوين الامبراطورية لا بد بالضرورة انـــه سابق على اتخاذه في تأليف الاخبار . ويدل الخبر المذكور فوق ، ان كان حقاً ، على ان عبدالملك نفسه لم يرغب في ان يتجه عمله الجديد الى هذا الاتجاه : وبرغم ذلك يجب ان ننسب اليـه التطورات التي تولدت طبيعياً منه . فقد اظهر طبقة الكتاب ، الذين اتسع نطاق معلوماتهم إذ ذاك واصبح موسوعياً ، على حين كان العامل الهام في انماء اسلوب نثري . ولا شك انه كان مضطراً الى الاعتماد على ابحاث النحاة واللغويين ولكن هؤلاء لم يكونوا قادرين على مسايرته . ولدينا قصة من القرن الرابع لعلها صحيحة ، تصور هذه الحالة . فقد كان ابو سعيد السيرافي النحوي ، الذي طبقت شهرته اللغوية الآفاق إذ ذاك ، في حفلة طلب السلطان في اثنائها ان تكتب عنـه رسالة رسمية . فسئل ابو سعيد ان يكتبها ، فعجز : على حين انجزها احد الكتاب في سرعة . ويروي المعجبون بعلي بن عيسى الوزير كيف كان قادراً على كتابة الرسائل التي ترسل إلى الولاة مباشرة : ولم يكن محتاجاً الى ان يعمل لها مسودة ، اذ لم يكن يغير منها شيئاً . وقد

صار الكاتب فيما بعد المؤرخ ، لا لانه ذو معرفة وثيقة بالامور ، وانما لأنه كاتب درب .

وكان ذلك النتيجة البعيدة لعمل عبدالملك ؛ وهناك اسباب لبقاء المراكز العليا في الدواوين مشغولة في كثير من الاحيان بغير المسلمين ، وغير العرب ، بالرغم من اتخاذ اللغة العربية لغة رسمية ، وكان الكتاب العرب نادرين ، إن كانوا وجدوا إطلاقاً[1]. وليس علينا إلا ان نتذكر الطبري، والدينوري ، ومسكويه ، وابراهيم الصابي ، وعمادالدين الاصبهاني ، ومن اليهم . وبالرغم من ذلك لم يزعزع ظهور هذه الصناعة مركز الحفاظ ، هؤلاء الذين احتفظوا بالاشياء في ذاكرتهم ، والتي كانوا يحتاجون الى خدماتهم في ذكر السوابق التي يقاس عليها في التشريع والقضاء بصفة مستمرة. لأن لفظ « السنة » ، الذي معناه اللغوي العادة ، صار معناه السابقة التي عملها النبي، اتسع نطاق النظرية القانونية الذاهبة الى ان العمل الذي قام به شخص مؤهل ربما يتكرر القيام به ، فتجاوز مجال اعمال النبي .

واصبح الرجال الحاصلون على ذخيرة من المعلومات يحتمل ان تثير انتباه المستمعين ، قصاصاً ، اتخذوا حلقات في المساجد ، ورووا القصص . وكان الناس اميل الى القصص التي تدور حول

---

(١) ذلك رأي خاطيء ، فالكتاب العرب موجودون منذ الجاهلية ، وكثروا في صدر الإسلام كثرة واضحة ، وارجع الى كتاب نشأة الكتابة الفنية عند العرب للمترجم . المترجم .

الاشخاص البارزين في تاريخ الاسلام ، او الانبياء المذكورين في القرآن ، وربما يرجع الى هذه القصص معظم ما تجمع حول هؤلاء الاشخاص. وغالباً ما يتهم القصاص الاولون، الذين اخذ المؤرخون المتأخرون معلوماتهم منهم ، بالاختراع او الكذب ، لامر او آخر . فيقال إن عوانة ، الذي يروي الكثير ، كذب لارضاء الامويين: ويبدو ان رواياته الموجودة في الكتاب المنسوب الى البلاذري تؤيد هذه التهمة . إذ تصور عبدالملك الأموي كريماً متسامحاً، على استعداد لمهادنة ابن الزبير بأية شروط، إذا ما تنازل عن طلب الخلافة. أما جميع الاعمال الوحشية والمنافية للدين التي وقعت في أثناء إخضاع ثورة ابن الزبير فالحجاج هو المسئول عنها : وفي الاوقات التي كان عبدالملك يستطيع أن يكبح جماحه ، فعل ذلك . وحيثما استطاع أن يصلح ما أفسده الحجاج ، فعل . وكان كريماً ايضاً في احترام أعدائه الذين تغلب عليهم ، ولم يستحسن أن تساء معاملتهم أو مخاطبتهم . ومن العسير الحكم على الاحتمالات في امثال هذه المسائل . وبرغم ذلك من الواضح ان اشتهار جميع هؤلاء الجامعين الاولين للمعارف بالصدق أمر مشكوك فيه . فإذا كان المؤرخون المتأخرون اعتمدوا على أقوالهم ، إنما كان ذلك لانهم لم يجدوا مصادر أخرى .

(٤) أدى الغنى في صدر الاسلام الى ظهور طبقة لا عمل لها ، والميل إلى القديم هو هواية مثل هذه الطبقة في كل مكان . وإذ نمت المدن الاسلامية وجد كثيرون مشغوفون بمعرفة كيف

أسست وكيف بنيت بناياتها الرئيسية : ووجدت أيضاً مشاكل ناتجة عن التنظيم القبلي في صدر الاســـلام ، الذي بحسبه أعطيت القبائل المختلفة أحياء متباعدة في المدن التي أسست .

وجد علم التاريخ لهذه الاسباب جميعاً بالرغم من عدم تشجيع الحكومة، وجعلت مطالب النظام التشريعي منه أمراً ضرورياً . واتخاذ احكام النبي « سنة » بدلاً من أعمـال الجاهلية جعل تدوين هذه الاعمال أمر لا يمكن الاستغناء عنـه ، واستلزم ذلك معرفة بعض الاشياء عن الاشخاص المذكورين في الاخبـــار ، والرواة خاصة . أضف إلى ذلك أن الاسلام كان مستمراً : فلم يكن لوفاة النبي النتائج التي تعقب غالباً وفـاة مؤسس أحد الانظمة : وشغل محله كرئيس للمجتمع في الحال رجال وضع فيهم ثقته عدة سنين وكانوا على معرفة تامة بآرائه . فأطلق لفظ « الآثار » حقبة لا على أعمال النبي وحده ، بل على أعمال خلفائه الاولين أيضاً . وفي موطأ مالك ، وهو أول مجموعة من الاحاديث لدينا ، بعض التساهل بهذا الصدد .

وتتمثل بعض الخصائص الناتجة من منهج التأليف في المجـــلد الموجود من تاريخ البلاذري ، ولعلها كانت ظاهرة في المجموعات القديمة التي يذكرها . وإحدى السمات التي تشترك فيها مع كتب الحديث هي « التكرار » : فترد القصة نفسها أكثر من مرة على الصفحة الواحدة أو في أجزاء متفرقـــة من الكتاب بدون اي اختلاف أو مع خلاف طفيف ؛ والسبب أن المؤلف أخذها عن أكثر من شيخ واحد . وفي مجموعات الحديث سبب لذلك ؛ إذ

تعد ألفاظ النبي كالوحي ، فمن الاهمية بمكان كبير تأكيد الصورة الصحيحة التي قيلت عليهـــا إن أمكن ؛ فالروايات المختلفة تشبه الطاقات المستقلة تتجمع جميعاً لتقوية الحبل . أضف إلى ذلك أن الاحاديث أساس التشريع ؛ فهي تصور المثال الذي قرر النبي ما عرض له من حالات على هداه ؛ وهي تورد أحكاماً هامة عـــلى مسائل من العقيدة. ولذلك من الطبيعي والملائم أن يتكرر ذكر الحديث الواحد في مجموعة مثل مجموعة البخاري تحت عناوين أو مواد مختلفة من الفقه . ولكن لا ينطبق أي سبب من هذين على أقوال الخلفاء الامويين مثـلًا وأعمالهم ، او الاشخاص الذين لا يعتدّ بهم. والخطة الاقل إسآما، والتي اتبعها بعض المؤرخين بعد، هي ذكر الرواة في صدر الخـــبر ، وإذا لزم الامر ، يشار إلى وجود بعض الخلافات الصغيرة بينهم ، على الرغم من اتفاقهم على السياق الرئيسي .

أضف إلى ذلك أننا نجد نتيجة عجز الذاكرة الذي يؤثر في الاخبار في معظم الاقطار . وجدير بالملاحظة الاقوال التي تنسب إلى غير قائليها ، بسبب تشابه الاسماء احياناً ، وبسبب الخلط بين الاشخاص الذين تربط بينهم رابطة ما أحياناً أخرى . فقد كان معاوية وعبدالملك أبرز خلفاء بني أمية ، وكانت وجوه الشبه في أخلاقهما غير قليلة ؛ ولذلك ينسب الخبر الواحد لكليهما . وعانت الاعداد ، ذات الاهمية الكبيرة في المدونات التاريخية ، كثيراً وبشكل خطير من السهولة التي تستبدل بهـــا الذاكرة الواحد

بالآخر . فيقول البلاذري في ذكره عدد المتفين حول الحجاج حين واجه ثورة ابن جرود ، إن بعضهم يقول ٦٠٠٠ ، وآخرون يقولون ١٦٠٠ !

ومن الشاق ان نحدد مدى الكذب الاختياري والمتعمد الذي تسرب الى الاحاديث في تلك الحقبة ، وليس أمام الحكم الشخصي ما يهتدى به. فهذا هو مؤرخ بغدادي ، هو ابن أبي طاهر ، يورد خطبة فاطمة بنت النبي ، تعترض على حرمان أبي بكر إياها ميراثها . ويقول إن صحتها موضع نزاع : ولكن هذا النقد يرجع في رأيه إلى الهوى ، الرغبة في الحط من شأن آل بيت النبي . وقد نقول من ناحية أخرى إن مثل هذا الموضوع أتاح فرصة طيبة لتمرين القدرة الخطابية . ويظهر من نقد الحديث الذي تطور إلى علم منتظم في زمن مبكر ، ونضج في القرن الثالث ، حين وضعت المجموعات المعتمدة ، ان الاحاديث كانت توضع على نطاق واسع . واختلفت أحوال جامعي الحديث في الشدة : أما ما اتفقوا عليه فوجود مقادير كبيرة من الاحاديث موضوعة . وقد أدى الشغف بزيادة المعرفة عن النبي وأبطال صدر الاسلام ، كما نعرف ، إلى كثرة العمل والجهد بين المسلمين عنها في أية حالة مشابهة : ودراسة أحاديث النبي هي المسئول الاول عن تقدم الجغرافية والتراجم وسببه ؛ واذ كانت طريقة اختيار صحة أحد الاحاديث هي تقدير جدارة راوية بالثقة ، كان مما لا يستغنى عنه معرفة اكبر قدر يمكن عن حياتهم : كان من الضروري معرفة متى وأين ولدوا ،

وجعل ذلـــك الجغرافية والتاريخ أمراً ضرورياً . وقوّى ذلك المبدأ الذاهب إلى ان اقوال النبي وأعماله مصدر للتشريع : ويبدو أن دوافع الوضع والكذب في هذه الاحاديث وفيما قـد نسميه التاريخ الدنيوي متكافئة . قد نصدق ان المسلمين كانوا لا يجرءون على وضع شيء ما متصل بالنبي ، إذ يقول حديث مشهور إن ذلك العمل على درجة كبيرة من الاثم. أما الكذب على يزيد بن معاوية أو عبدالملك فأقل جرماً كثيراً . ومن جانب آخر كانت قيمة أقوال النبي وأعماله غـاية في العظمة ، ولذلك وجـــد الدافع إلى وضعها في هذه الحالة ولم يكن دائمـاً دافعاً لا يستحق الثقة ، ولا ينفرد الحديث به . ويحتاج التمييز بين ما حدث فعلاً وما لا بـد أنه حدث الوصول الى حالة اتزان فكري لم يبلغها حتى في أيامنا الا قليلون . وكان هؤلاء الذين شكّلوا أخبار تلك الحوادث التي كان لها أعظم النتائج في التاريخ الاسلامي ، بعض التشكيل أميل الى ان يوضعوا في مركز جعلهم يتخذون رأياً خاصاً فيما قد حدث: وجُعلت الاخبار بحيث توافق ذلك الرأي . ونستطيع ان نرى آثار ذلك حتى في التاريخ المتأخر. ونمثل لذلك بأخبار مقتل المقتدر التي رواها كل من مسكويه وعريب . إذ يقول مسكويه إن المقتدر كان جباناً لا أمـل له ، وبالرغم من دعوته مراراً للظهور امام قواته في الميدان ، كان يقدم الاعتذار تلو الاعتذار ، الى ان ارغم على ذلك ؛ أما عريب فتقول إنه تقدم بشجاعة . ويتفق الاثنان على انه لقي حتفه في تلك المناسبة . وربما كانت عريب

تفكر كيف يجب ان يتصرف الخليفة ، على حين يتبع مسكويه رواية صحيحة .

وبرغم ذلك ، تتبعنـــا الآن العملية التي صارت الروايات بواسطتها أخباراً تاريخية . فقـــد استدعى كثيرون شهود العيان للحوادث الهامة ليصفوها : وجعلهم الاصطلاح يتخذون بعد مدة اسلوباً ثابتاً في تعبيرهم، صار حديثاً . ونجد هذه العملية على الاقل في القرن الرابع : فالرجل الذي يريد الحصول على معلومات قيمة وعلى استعداد لجلبها يتخـــذ صورة خاصة : ويرويها المستمعون المختلفون، مع خلافات غير هامة عادة، ومع خلافات هامة أحياناً . وادخلت هـــذه الاحاديث في المجموعات المستمرة مع استمرار احتفاظها بذاتيتها: ولما ظهرت الحاجة الى الاختصار أسقط «الاسناد» وصارت تاريخاً . ويجعل المؤرخون العرب ، كما قد رأينا ، تتبع مصادرهم أيسر مما عند مؤرخي الامم الاخرى اذ ان تاريخهم تطور من الاحاديث: ولم يبدأ بالتاريخ المستمر او الرسمي، وإنما باخبار شهود العيان . وامتلاك المسلمين لهذا النظام جعل المسلمين يمتازون ميزة واضحة في خصوماتهم مع اليهود والمسيحيين، الذين يظهرون بمظهر الاكثر تسليماً بمعلوماتهم . فليست لديهم سلاسل رواة لتاريخهم الديني أو الدنيوي : حيث ، لا يصف المؤرخون الاغريق مثلا تجاربهم الخاصة، وقلما يتيحون لنا الفرصة لاختبار مصدر المعلومات التي يقدمونها : وعلينا ان ندعي أنهم حصلوا عليها من أناس كانوا عارفين بها . واخيراً اضطر اليهود إلى تأليف « إسناد » لتوراتهم.

الفصل الرابع

الشعر أداة للتاريخ

إذا كان التاريخ إلى حد ما تفسيراً للقرآن ، فلدينا من الاسباب ما يجعلنا نذهب إلى أنه تعليق على الشعر إلى حد ما ايضاً . ونقابل مراراً النظرية القائلة بأن الشعر هو المنهج القبلي لتدوين التاريخ ، وينشد قدماء المؤرخين الاشعار الشاهدة على كبار الحوادث ؛ وكان ذلك امراً يسيراً عليهم لأن التنظيم العسكري كان لا يزال قبلياً ، وكانت الافراح والآلام التي يتغنون بها خاصة بالقبيلة . ونجد مثالاً من أقدم الامثلة لهذه الصورة من التأليف التاريخي في سفر القضاة ، حيث يبدو ان أغنية ديبوره كانت النواة التاريخية التي تعلقت بها الاخبار المنثورة تعليقاً عليها ؛ ومن المصادر التي أخذت منها الاجزاء التاريخية من العهد القديم أخبارها القديمة كتاب يسمى وغنّى* ، وهو مجموعة من القصائد القبلية التي تخلد الانتصارات والهزائم . ونقرأ بالمثل عن قصائد سجلت فيها ألوان الكفاح بين الأوس والخزرج قبل مجيء النبي ، الذي حرم

* مؤكد ان ذلك هو المعنى الحق لكلمة «يشار» .

إنشادها ، إذ كان يرمي إلى تدعيم الاخوة بين القبائل . وواضح أنه لم تتح فرصة البقاء إلا للقصائد ذات الميزة الفائقة او التي تسجل نصراً او هزيمة حاسماً من هذا اللون من الشعر ؛ وقد وجد العلماء الفرنسيون الذين جمعوا قصائد الافريقيين الشماليين انها جميعاً حديثة العهد ، إذ غطت الأزمات الحديثة على الازمات القديمة التي أثارت الفورات الانفعالية ، فأعقب ذلك حلول القصائد الحديثة محل المنظومات القديمة . ومن الطبيعي أن هذا المصدر للتاريخ الاسلامي القديم لفت أنظار النحاة والمشتغلين بالآثار القديمة ، الذين غالباً ما تروى عنهم الاشعار . ولم يكن اهتمامهم اهتمام المؤرخ ، الذي همه الاول ما يعمله الناس ، وإنما اهتمام الناقد الادبي ، الذي يعني أولاً بما يقولون ، أو اهتمام الأثري ، الشغوف بمعرفة عاداتهم ومعتقداتهم .

وهناك بعض المشاكل البارزة التي تصاحب هذه الطريقة في تذكر الاشياء . فمن الممكن طبعاً أن يذهب المحاربون الابطال مثل عبدالله بن الزبير المطالب بالخلافة ، إلى القتال وهم ينشدون الاشعار التي نظموها ، وأن يتذكر الاشخاص الذين يواجهون الموت في صفه هذه الابيات ، وأن يخلصوا من المعمعة سالمين ، فيحتفظوا بالاشعار ويرووها . ويمكن من جهة اخرى أن يتصور المرء ما قد يقوله بطل في هذه المناسبة ويصوغه شعراً ، ثم ينسبه اليه لمنح الرواية معالم الحياة . ونسبة الاقوال كذباً الى الاشخاص الموصوفة اعمالهم امر مألوف بحيث لا يحتاج الى مثال . ونجد في مجموعات الرسائل النموذجية رسائل يقال انها كتبت في مناسبات

هامة ، كاسترجاع بيت المقدس من الفرنجة ، وغالباً مـــا يتعذر التمييز بينها وبين ما قد كتب فعلاً حينئذ . ومن المعروف في حالة سيرة ابن اسحاق أن القصائد التي يزين بها الاخبار ، ويفترض انهـا قيلت بعيد الاحداث الهامة في حياة النبي أو على صلة مباشرة بهـ ، وبعضها قصائد طويلة ، كُتبت إجابة لطلب ابن اسحاق ، ولذلك يحق الشك في الحـالات الاخرى . ولكن حيث تكون الصحة مؤكدة ، كما في حالة القصائد التي نظمها الشعراء العباسيون يمجدون اعمال ممدوحيهم ، نجد طبيعة القصائد تجعلها لا تصلح لنقل المعلومـات المفصّلة او الدقيقة . فهي تحفظ بعض أعلام المواضع والاشخاص ، ولكن من الطبيعي ألا صلة بينه وبين التواريخ وفنون القتال .

ومن المعروف أن الاخبار تكتسب حياة اذا ظهر الاشخاص فيهـا يتكلمون ، ولا يقتصر دورهم على القيام بالاعمال وحدها ، وقد روعي ذلك طويلاً ؛ ولكن هذه العملية ، إن لم تحدد تحديداً صارماً ، أحالت التـاريخ رواية . والمؤرخ الذي اشتط في هذا الامر هو الدينوري إذ يروي في سرده الحوادث التي أدت الى موقعة صفين محادثة بين معـاوية والشخص الذي وفد عليه بأخبار مقتل عثمان ، ويحض معاوية على طلب الخلافة لنفسه ، وينشد بعض الابيات ، فيسر معاوية بالاقتراح ، ويرتجل شعراً : قصيدة طويلة . ثم تصله رسالة من علي ، يدعوه فيها الى البيعة له ، وتُروى الرسالة كاملة . ويستشير معاوية أقرباءه ، فينصحه أخوه عتبة بطلب مساعدة عمرو بن العاص ، فيبعث معاوية رسالة الى عمرو ، وتُدوَّن

هذه الرسالة ، التي تستدعي الاخير . ويصل عمرو ، ويستطيع المؤلف أن يورد الحديث بين الاثنين ، إذ يذكر معاوية ثلاث مشكلات وقعت له ، آخرها طلب علي . فيطرح عمرو الاولين لسهولة التخلص منها ، ويشير إلى مشقة مقاومة علي ، ويسأل ما هي مكافأته إن هو أعان معاوية . فيطلب اليه الاخير أن يذكر شروطه ، فيطلب مصر ، فيسأله معاوية أن يمهله للتفكير ، ثم نستمع الى حديث بينه وبين عتبة ، الذي ينصحه بقبول شروط عمرو . ويطلب معاوية إلى اخيه أن يقيم ليلته عنده ، فيسمعه ينشد بعض الاشعار ، يحضه فيها بالمخاطرة ، فيجعله ذلك يستقر على رأي ما . حينئذ يقترح عمرو الخطوة الاولى ، وتُبْعَث إلى علي رسالة شعرية ، فيأمر علي بالاجابة عليه شعراً .

ويثير ذلك العمل الذي يصبغ التاريخ بصبغة روائية بعض الشك في أية حالة ، وخاصة عندما لا يذكر المؤلف (كالدينوري) رواته . إذ يجب أن يكون راوي المحادثات السرية ، إن كان من الممكن حفظها إطلاقاً ، أحد المشتركين فيها ، وحيثما لا ينسب الحديث إلى احد الجانبين المشتركين فيه ، فلا إمكانية كبيرة لروايته . أضف الى ذلك أننا نجد الرسائل التي يقول ذلك المؤلف إنها تبودلت بين الجاهلية مختلفة تماماً عما يرويه مؤرخ آخر ، هو ابن قتيبة ، حقاً إن المعنى واحد إلى حد ما ، كما قد نتوقع ، لأن ذلك ما تؤيده الوقائع . من الطبيعي أننا نستطيع أن نتخيل أن ينظم معاوية واخوه والباقون الشعر في هذه المناسبات ، ولكن المحتمل أنهم كانوا مشغولين بأمور اخرى . ومن الواضح أن ما

نجده في هذه المحادثات ، التي يضيف اليها المؤرخون الآخرون آخرين ، هو حل المشاكل التي تقع . ما الذي دفع معاوية إلى مقاومة علي، وأن يستدعي عمراً ؟ كيف استجاب عمرو للدعوة ؟ هذه الاسئلة وامثالها تعرض حين يرغب المؤرخ في الغوص وراء دوافع الاعمال التي يسجلها . فالمنهج المستَخدَم هو التظاهر بمعرفة كل شيء ، الذي يدعيه مؤلف الروايات بالضرورة ، فلا اسرار تخفى عليه . وذكر الشعر حيلة لتزيين السرد ، يستخدمها كتاب الروايات من العرب استخداماً منتظماً . فالمتحدثون في المقامات ينزلقون إلى الشعر عندما تتاح لهم الفرصة لذلك .

رأينا اطرافاً من الضعف الملازم لاستخدام القصائد سجلات للحوادث . بل لا يخلو منها امثال قصائد مَكُولي Macaulay عن روما القديمة ، لو كان لدينا ما يماثلها متناولاً احداث بلاد العرب الجاهلية او حوادث القرن الاول من الاسلام ، وان تمتعت بالاستمرار التاريخي وعدم التقطع وببعض التفاصيل الجغرافية وغير الجغرافية بما يؤلف سجلاً واضحاً للأحداث . ولكن ليس من اليسير أن تعثر في شعر العرب القديم ما تمكن مقارنته بتلك القصائد ، بل بأغنية ديبوراه . فمن المعروف أن النظم العربي غير ملائم للاستمرار والاتصال : فالبيت وحدة مستقلة ، وواهن الصلة عادة بما يسبقه أو يعقبه : ولا يربط بينها المعنى بل الاتفاق في القافية والوزن . ومن ثم فالشعر الذي يعالج التاريخ القبلي وغيره في احواله العادية تلميحي اكثر منه تاريخي او قصصي، وإذا ما وصلت الينا القصيدة التي تعالج تلك الاحداث كاملة ، وجدناها تخلط

الاحداث التاريخية بأمور اخرى غير ذات صلة بها . ولذلك نخرج بقليل من الامور التاريخية ، من المعلقات ، وخاصة معلقة زهير ، التي تمدح بعض الرجال لسعيهم في اقرار السلم بين قبيلتين متحاربتين وتحملهم المغارم في سبيل ذلك . ولكن وصف معلقة زهير بأنها قصيدة قاصة ballad يشوه صورتها تشويهاً بعيداً . فهي تعليمية اكثر منها قصصية .

ولا يختلف عن هذا الطابع الاشعار التاريخية التي تؤلف « ديوان العرب » . وتمدنا بأمثلة ذلك حماسة أبي تمام . فهي في كثير من الاحوال قطع مختارة من قصائد ، لانها تعالج موضوعات خاصة . وفي العادة تترجم اصاحبها ، وتحتاج إلى تعليق تاريخي يوضحها . وكان على الاشعار ان تعيش معتمدة على مزاياها ، وفي تلك الحالة يمدها ثقات الرواة بالمعلومات المفسرة . وغالباً ما ثار الشك الخطير حول المناسبة التي قيلت فيها الاشعار ، بل اختلف العلماء في مؤلف بعض الابيات المشهورة . أضف إلى ذلك وجود حالات بقيت فيها الحادثة في ذاكرة الرجال او وصلت إلى علمهم بطريقة ما ، فنظمت الابيات لتلائمها . وأحياناً يغرينا الموقف على الابتسام من مسلك المؤرخين والمنقبين الذي لا تمحيص فيه ، إذ يذكرون الاشعار التي لا يمكن ان تصدر ممن تنسب اليه .

ونجد في دواوين الشعراء العباسيين مـا يقترب من القصيدة القاصة ballad اكثر من اقترابه من التلميحات العارضة . إذ ترمي كثر من قصيدة من طوال أبي تمام ، والبحتري ، والمتنبي ،

والشريف الرضي ، والتعاويذي ، وغيرهم الى الاشادة ببعض الاحداث او المشاهد التاريخية . ويصير لما تعطينا هذه القصائد من معلومات خطرة ، حين يكون الديوان مرتباً حسب زمن القصائد ، وتمدنا عناوينها بتواريخ مناسباتها . وفي بعض الاحوال تسجل القصائد احداثاً ذات اهمية غير قليلة لا تذكر عنها كتب التاريخ شيئاً ، فهذا هو البحتري يصف موقعة بحرية يبدو ان المؤرخين المعاصرين له لم يتنبهوا لها . ويصف في إطناب قصوراً بناها خلفاء عصره ، ولا تذكرها كتب التاريخ .

[ارجوزة عبدالله بن المعتز]

ووجدت في القرن الثالث الاسلامي فكرة الاستعاضة عن القصيدة القاصة بما هو أشبه بالحولية chronicle المنظومة . فقد أفرد عبدالله بن المعتز ، لحياة المعتضد وعهده ، قصيدة سماها «كتاب سيرة الإمام» . بل يذكر تاريخ وفاته في البيت :

ومات بعد مئتين قد خلت   في عام تسع وثمانين مضت

والشاعر أديب مشهور ، يكثر الاقتباس من اقواله الادبية المتعددة الالوان ، وله ديوان جيد . وقد فضله على المقتدر الطفل ونصبه على الخلافة جماعة منها علي بن عيسى ، الرجلُ الفاضل ، الذي ذهب الى ان الواجب على العقلاء تنصيب رجل ذي خبرة بالامور ، كان ذلك بعد وفاة الخليفة المكتفي ، عندما بدا كأنما تنصيب الخليفة في يد الوزير . ولكن الجند المخلصين لذكرى المعتضد ، عارضوا ذلك التعيين ، فكانت خلافة عبدالله قصيرة الاجل .

وتختلف القصيدة التي تبلغ ٣٦٣ بيتاً عن القصائد القاصة ، إذ

انها وصف متصل الحلقات لغزوات المعتضد . وتستهل بعد البسملة بقوله : إن النبي

مضى وأبقى لبني العباس ميراث ملك ثابت الآساس
برغم كل حاسد يبغيه يهدمه كأنه يبنيه

يلي ذلك العنوان :

هذا كتاب سيرة الامام مهذّبا من جوهر الكلام
أعني أبا العباس خير الخلق للملك قول عالم بالحق

ويستطرد الشاعر في القول :

قام بأمر الملك لما ضاعا وكان نهباً في الورى مشاعا
مذللًا ليست له مهابه يخاف إن طنت به ذبابه
وكل يوم ملك مقتول أو خائف مروع ذليل
أو خالع العقد كيا يغنى وذاك ادنى للردى وأدنى

وتضم هذه الفقرة وصفاً صحيحاً لفترة الفوضى التي أعقبت قتل المتوكل واستمرت الى ان اعتلى المعتمد الخلافة ، وعلى الرغم من الاغراق في المبالغة في عبارة « كل يوم » ، نجدها على لسان احد المتحدثين في تاريخ الطبري . ثم يصف شغب الجند :

ويطلبون كل يوم رزقا يرونه ديناً لهم وحقا

ثم يُعلن :

وكان قد مزق ثوب الملك طوائف إيمانهم كالشرك
فمنهم فرعون مصر الثاني عاصي الاله طائع الشيطان

يريد ابن طولون .

والعلوي قائد الفساق وبائع الاحرار في الاسواق

ثم يعدد آخرين ، يقول انهم جاروا على الرعية .

[والدلفي العود والصفار] ومنهم إسحاق البيطار
أعلم خلق الله بالماخور وعدد مثلث وزير
ومنهم عيسى بن شيخ وابنه كلاهما لص حلال لعنه
يدعون للامام كل جمعه ولا يردون اليه قطعه
ويأخذون مالهم صراحا ويخضبون منهم السلاحا
ولم يزل ذلك دأب الناس حتى أغيثوا بأبي العباس
كان لنا كأردشير فارس إذ جدّ في تجديد ملك دارس

وكان المصدر الرئيسي لمتاعبه فتنة الزنج، الذين سيطروا على البصرة عدة سنوات وهزموا جيوش الخلافة المرة بعد المرة . ويعزو الشاعر فضل القضاء عليهم الى المعتضد ، الذي عاون اباه الموفق في هذه المهمة الشاقة ولا شك . واسم الثائر الحسن. ويطلق عليه الطبري عادة اسم « القبيح » ؛ ومن الواضح ان فتنته ذات جانب ديني إذ ادعى قائدها انه من ابناء علي، وقال في بيانه الذي يرويه الطبري انه لا يقاتل من اجل دنيا يصيبها . ويؤيد وصف ابن المعتز له اقوال الطبري :

والبائع الاحرار في الاسواق وصاحب الفجّار والمرّاق
وقاتل الشيوخ والاطفال وناهب الارواح والاموال
ومالك القصور والمساجد ورأس كل بدعة وقائد

إمـام كل رافضي كافر من مظهر مقـالة وسـاتر
يلعن أصحاب النبي المهتدي إلا قليـلاً عصبة لم ترتدد
فكفر الناس سواهم عنده فلعنة الله عليـه وحده
ما زال حيناً يخدع السودانا ويدعي البـاطل والبهتانا
وقال : سوف افتح السوادا وأملك العبـاد والبلادا
ويدخلون عاجلاً بغداذا [فلم ير الكذاب ذا ولا ذا]
وقـال : إني أعلم الغيوبا [لم ير فيهـا عالماً مجيباً]
فخرب الأهواز والأُبُلّه وواسطاً قد حلّ فيه حلّه
وترك البصرة من رمـاد سوداء لا توقن بالميعـاد

وأذاقها ما لم يسمع بمثله من ألوان العذاب . ويعدد الشاعر قواد بغداد الذين هزمهم ذلك المدعي :

ورامه موسى فمـا أطاقه ومجّه من فيه حين ذاقـه

موسى بن بغا .

وقد سقى مفلح كأس القتل وشكّه بمخصف ذي نصل
وترك الاتراك بعد فقـده كذي يد قد قطعت من زنده
وقتـل ابن جعفر منصورا وكان قبل قتله كبيرا
من بعد ما صابر أي صبر وأرجف النـاس له بالنصر
والشيخ قـد غرّقه نصيرا وقال: حسبي فَقْد هذا خيرا
أعني غلاماً لسعيد الأعورا قد كان في الحروب موتاً أحمرا
حتى إذا مـا أسخط الإلهَ وبلغت فتنتـه مداهـا
أغرى بـه الله هزبراً ضيغما إذا رأى أقرانـه تقدما

فلم يزل عاماً وعاماً ثانيا وثالثاً يكابد الدواهيا
مجاهداً برأيه ونصله وماله وقوله وفعله

ثم يبين الشاعر ان المعتضد فاز بالنصر النهائي بوسائل اخرى غير مجرد الشجاعة في الحرب :

ويقبل المستأمن المنيبا ويغفر الزلات والذنوبا
ولا تراه ناقضاً لعهده ولا يشوب باطلًا بجده
ثم سما من بعد للشاميَّيْن فجرعوا من كأسه الأمرَّين
وعرفوا عند اللقاء صبره وشده يوم الوغى وكرّه
سل عنه قيلا صرعوا بشيزرا [وآخرا وآخرا وآخرا]
جاء من الشام الى الفسطاط [يحث عدو الخيل بالسياط]
وحارب الصغار بعد الزنج فطار إلا أنه في سرج

ثم يستطرد إلى انتصارات أقل شأناً - خلعه الوزير أبا الصقر إسماعيل بن بلبل ، ذا الأهمية الكبيرة ، وإن لم يذكره الطبري إلا عرضاً. وقد مدحه وهجاه الشاعر المعاصر ابن الرومي، وخص بالذكر ادعاه الانتساب الى بني شيبان من العرب . ويذكر الشاعر أنه كان خبيراً بابتزاز الأموال :

يأخذ من هذا الشقي ضيعته وذا يريد ماله وحرمته
وويل من مات أبوه موسرا أليس هذا محكماً مشهرا
وطال في دار البلاء سجنه وقال:من يدري بأنك ابنه ؟
وتاجر ذي جوهر ومال كان من الله بأحسن حال

قيل له : عندك للسلطان ودائع غالية الاثمان
فقال : لا والله ما عندي له صغيرة من ذا ولا جليله
فدخنوه بدخان التبن وأوقروه بثقال اللبن
ثم بنى من القصوب دارا فأصبحت موحشة قفارا
ما مات حتى انتهبت وهو يرى وبلغوا في هدمها إلى الثرى
ثم إذا ما قام عن غذائه وفرغت قهوته بمائه
تناول الريشة والطنبورا فأضحك الصغير والكبيرا
ومدح أفلاطون والفلاسفة وساعدته في هواه طائفة
وذكر السعود والنحوسا والجوهر المعقول والمحسوسا
وذرع طول الارض والافلاك وكم بلاد الصين والاتراك
واستثقلوا من قام للصلاة فكيف من طول في القراءة
فلم يزل ذاك دأب الجاهل حتى رمي بسهم حتف قاتل

ويذكر أن وفاة اسماعيل أعقبها اعتلاء المعتضد الخلافة ، فأنفذت مصر إليه مالها ، وسارع الصغار إليه بالاذعان . ثم فحص المعتضد قوائم الجند وطرح جميع العاجزين : وبعد هذا الفحص سار إلى الموصل ، وقضى على السرقة والقرصنة . ويقول : وكان في دجلة ألف ماخر ، يجبون كل مقبل ومدبر . ويذكر أسماء زعماء اللصوص المهزومين ، وأهمهم حمدان ، الذي هدمت قلعته : ويضطلع ابناء حمدان هذا بنصيب كبير في تاريخ القرن التالي . كذلك هارون ، خليفة الأكراد والاعراب ، وواضح أنه كان من الخوارج ، إذ يلعن عثمان ويبرأ من علي .

ثم يذكر الشاعر بين خدمات المعتضد وتأخيره النيروز ، أي إخضاعه الخراج للتقويم الشمسي : إذ أدت جباية الخراج وفقاً للتقويم القمري ، كما ينتظر ، ويظهر من المراجع الاخرى ، إلى صعوبات عظيمة ، إذ استعمل الجباة شتى صنوف التعذيب لارغام الناس على دفعها : ولم يكن من المستطاع أن يتم ذلك إلا عن طريق الاقتراض بفوائد باهظة . ولكن الشاعر يؤكد لنا أن كل هذا قد أبطل .

ثم يستطرد الى اعجابه بمباني هذا الخليفة ، التي لم يبن بان من الخلفاء مثلها . وكان في احدها شجرة صناعية :

وما رأى الراءون مثل الشجره ذات غصون مورقات مثمره
ولم تكن غرسا ترابه الثراء ولم تكن من شجر يسقي بماء
لكنها تخبر عن حكيم موفق مجرب عليم
مفكر من قبل ان يقولا ويحسن التفهيم والتمثيلا

مثل هذه الاعمال (ويعدد كثيراً غيرها) شاهدة على قوة الاسلام .

ثم يعلن :

ومعظم الفتوح فيه آمد معقل كل فاجر معاند
لم تر قط مثلها مدينه منيعة بسعدها حصينه

ويذكر الشاعر ان المعتضد استولى عليها بعد حصار طويل . وكانت مقر عيسى بن شيخ ، المذكور قبلاً .

ثم اتى الرقة ينوي امرا فلم يزل فيها مقيماً شهرا

وبادرت مصر الى رضائه تنتظر الاصعاق من سمائه
وحملت اموالهـــا اليه وخافت البطشة من يديه

وعند عودته رحب به ثلاثة ، هم الامير والوزير وابو الحسين القاسم

ثلاثـــة للملك كالأثافي قوادم ليست من الخوافي

ويمدح الخليفة لبراعته في اختيار امثال هؤلاء المساعدين .

ويستطرد الى القول بأن المعتضد رأى النبي في المنام ، بعد عشر سنين من حكمه ، فشكره لخدماته ، فأعقب ذلك القبض على اسماعيل الصفار الثائر الذي حمل الى بغداد في القيود : وهزيمة ابن زيد الثائر في طبرستان .

ثم يذكر انتصارات أخرى متنوعة ، بعضهـــا مثير للحيرة والغموض : ثم كلمة عن القرامطة ، ذوي الآجام ، الذين سنوا شرائع الفساد ، وأهلكوا إهلاك عـاد — وتلك مبالغة لان القرامطة كانوا مصدر قلاقل خطيرة في العهود التالية . وما يذكره ابن المعتز عنهم له اهميته :

كانوا يقولون : إذا قتلنا صبرا على ملتنا رجعنا
من بعد ايام الى اهلينا فقبح الرحمن هذا الدينا
يجاهدون عن إمام مختفى يقرب الوعد لهم ولا يفي

ثم هجوم على اهل الكوفة المفترض انهم شجعوا الحسين على الثورة ثم تخلوا عنـه : ويشبه الدموع التي سفحوها عليه بدموع

التاسع – ولا بد ان ذلك القول مثال مبكر من المثل . ويشير ايضاً الى كثرة الاديان والمذاهب في هذه المدينة ، الكثرة التي نسمع عنها بعض الاقوال الاخرى . ولم يزل اهلها في حيرة من دينهم : فلا هم يهود ولا نصارى : والمسلمون منهم براء . بل هم رافضة اشتات . يجحد بعضهم الرسول ، ويدعي ان جبريل غلط في فعله ، اي اعطى الرسالة التي كان علي مقصوداً بها الى محمد . ويقول بعضهم ان علياً ربنا ؛ وحسبنا ذلك ديناً . ومنهم الثوار والعصاة ، الذين يجيبون كل دعوة الى بيعة جديدة ... ونبيهم ابن ابي القوس ، الذي خفف عنهم الصلوات ، وقال : ناب بعضها عن بعض .

ولو قورنت هذه القصيدة بتاريخ الطبري وجد انها تقاربه في الصبغة التعليمية : اذ يؤرخ ابن المعتز الاحداث في حالة او اثنتين بالشهر ، ولكن ليست السنة التي يشير اليها واضحة . ولقد وفق في اختياره الرجز وزناً لهذه القصيدة المؤرخة : فتجنب بذلك الصعوبة الكبيرة في التزام قافية واحدة في ابيات تبلغ المئات . وعلى الرغم من اصطباغ بعض الابيات بالصبغة النثرية بطبيعتها ، لا زال كثير منها يتمتع بصفة اللغة المذكورة في البداية . ولذلك فهي اقرب الى التاريخ كثيراً منها الى القصائد القاصة . ولكنها تشارك هذه القصائد في التأثر بالهوى الذي لاحظناه : اذ لا نستطيع ان ننسب الى المعتضد محقين كل ما يعزى اليه فيها ، ولا يخطر في خلد الشاعر ان الامر نفسه قد يحدث لاعدائه . ومهما كان الامر ، فاننا لو لم نحصل على اي تاريخ لهذه الحقبة ، لوجدنا في ابن المعتز عوضاً حسناً عن واحد من كتب التاريخ .

[زائية ابي فراس الحمداني]

ونجد مثالاً آخر للقصيدة المؤرخة في قصيدة ابي فراس الحمداني، ابن عم سيف الدولة المشهور ، الذي اسر في إحدى الحروب الاخيرة مع البيزنطيين ، وتوسل سدى الى ابن عمه ليسعى في اطلاق سراحه . والقصيدة التي يروي فيها مجموعة كبيرة من الاحداث من اللون القديم المعروف باسم المفاخرة ، التي يشيد فيها الشاعر بنفسه او قبيلته . وبعد مقدمة غزلية فيها شيء من الطول يفرد الشاعر ما يزيد على ١٥٠ بيتاً لتاريخ الحمدانيين : وهي من بحر الطويل ، قافية الراء .

ويستهل هذا الجزء بمدح سيف الدولة ، الذي اغنته امجاده ، يقول ، عن تذكر الامجاد القديمة لاسرته . ولكنه يسرد تاريخها القديم ، مبتدئاً بجد لم يسمّه ، يقول انه جمع شمل بني تغلب وقد احدق بهم خطر التفرق ، وتحمل ديات مئة قتيل ذبحوا في احدى المعارك القبلية . وضاف فرد آخر من القبلية الامام وجيشه . وحكم جد آخر الديار وعال الرعية في المحل الذي استمر ثلاثة اعوام .

أما داءَ ثغر كان اعيا دواؤه   وفي قلب ملك الروم داءٌ مخامر

وبنى قلعة ليحمي الثغور ، واضح انها هدمت ، ولكن الشاعر يتنبأ باعادة بنائها . ولما ألمت الازمة بالديارين (ديار بكر ومضر) أزال آثارها بكرمه . وعمه هو الذي اردى فاتكاً والقتال . وسار الى دار الخلافة فحرقها والجيش محاصر لها . ويختلف وصف

مسكويه لهذه الاحداث اشد الاختلاف . فقد هاجم حسين بن حمدان ، العم الذي يشير اليه الشاعر ، قصر الخليفة المقتدر ، في مطلع عهده ، ولكنه واجه من المقاومة ما جعله ينسحب ويفر إلى الموصل . ويعزو الشاعر إلى هذا الرجل مجموعة أخرى من المفاخر التي إما أخفاها المؤرخ أو أبرزها في صورة مخالفة شديدة : فالانتصارات المختلفة التي يدعيها الشاعر لعمه يدعيها المؤرخ لمؤنس ، القائد العظيم في ذلك العهد . وتلك هي الحالة في فتح مصر ، وهزيمة السُبُكري ، والقبض على يوسف بن أبي الساج ، الذي يطنب المؤرخون في روايته بعض الاطناب ، دون الاشارة كثيراً إلى الدور الذي قام به الحمداني . يلي ذلك في القصيدة مجموعة من الامجاد الجاهلية التي ليس من اليسير التحقق منها . ويتخلص الشاعر من هذه الامور إلى استيلاء سيف الدولة وناصر الدولة على بغداد ، ويعدل بعض العدل في تصويره شاهداً على مساعدتها الخليفة أيام كان لا نصير له ، وإعادته الى مقره وتنصيبه على الخلافة ، وسياسة امور المسلمين سياسة يشكرها الدين والاسلام . ويصور قتل ناصر الدولة لابن رائق ، الذي يبدو في التاريخ حدثاً من أحداث الخيانة الكبيرة ، في البيت :

ولما طغى عجلُ العراق ابن رائق　　شفى منه لا طاغ ولا متكاثر

ومما تجدر ملاحظته أن الشاعر يحذف في تعديده امجاد أسرته ذلك الحدث الذي يؤثر في قارىء تاريخ مسكويه كل التأثير — ألا وهو خيانة أبي الهيجاء للقاهر . ويخصص ختام القصيدة لمفاخر

سيف الدولة ، وهي من ناحية شبيهة بما يقوله المتنبي المشهور . ويذكر بين التفاصيل أن الاخشيد بما رأى ما قد أظلّه ، يريد قوة سيف الدولة في حلب — عزم على مهادنته ، ورأى أنه ينال بالصهر ما لا ينال بالعساكر .

ولا شك أن قصيدة أبي فراس هذه أكثر شاعرية من قصيدة ابن المعتز ، ولكنها تكشف عن نقائص اسلوب القصائد القاصة بدرجة كبيرة . فالاسلوب تلميحي الى درجة عظيمة : ولا يذكر الشاعر اسماء اجداده واعمامه ، ولذلك لا تتضح القصيدة بدون شرح . والاعمال المشاد بها فيها كثير من المبالغة ، او يساء إبرازها إساءة كاملة ، كما نستطيع أن نتبين من المراجع الاخرى . ومن المحقق أن سيرة سيف الدولة لم تكن مجموعة من الانتصارات المتصلة الحلقـــات ، ولكن لا يلقى الاهتمام او لا يشار إلا الى الانتصـار . أضف إلى ذلك أن من الواضح أن الشاعر لا يعير الترتيب الزمني انتباهاً ، ومن المحال أن تستخرج من الابيات ما يشبه الوصف المتسلسل المترابط لاحدى حملات سيف الدولة . وواضح أن إشارات متنوعة لها أهميتها ولا بد أنها تشير الى وقائع تاريخية ، ولكنها محيرة : والمحتمل أن الشروح ، في حالة عثورنا عليهـــا ، لا تتناول إلا الجوانب اللغوية كما يصحف شارح نسخة بيروت ابن رائق ويجعله ابن زائق ويخبرنا أن الاخشيد «اسم رجل» .

وإذا ما كانت القصيدة ذات قيمة متوسطة من الجانب التاريخي ، فإنها على شيء من الاهمية باعتبارها مثالاً من امثلة «المفاخرات» ،

وهو إن كان متأخراً ، إلا أنـه لا يشك في صحته ، ومن نظم شاعر موهوب ومشهور . أضف إلى ذلك كونه ، باعتباره ابن عم سيف الدولة وناصر الدولة ، اللذين اضطلعا بأدوار عظيمة الاثر في سياسة العصر ، اقدر على مدحهما من شاعر البلاط العادي ، الذي تكون معرفته براعيه اقل ألفة وحرصه في اقواله اعظم . ولكن يبدو أن معرفته بحوادث الجيل السابق له مباشرة كانت على شيء من الغموض : فواضح انه لم يستطع ان يسمي اعمـامه واجداده الذين يريد الاشادة بأعمالهم. ووصفه للوقائع بل الحديث منها ليس متحيزاً حسب ، كما قد رأينـا ، بل يسيء تصوير الاحداث إساءة خطيرة ، إذا ما كان لنـا ان نثق بكتب التاريخ . وإذن فقصيدة ابي فراس هذه تمثل خطر استخدام الشعر القاص باعتباره تاريخاً .

[أرجوزة ابن عبد ربه]

والمثل الثـالث الذي لدينا للتاريخ المنظوم موجود في مجموعة الكاتب الاسباني ابن عبد ربه . وهي قصيدة تصف اعمال الخليفة عبد الرحمن الثالث، اول من تلقب خليفة من الامويين في اسبانيا . وهي من بحر الرجز ، كقصيدة ابن المعتز ، ولكنها تختلف عنهـا إذ تنقسم إلى اقسام مؤرخة : فهي إذن على نظام الحوليـــات . وطبيعي ان لغتها مادحة ومبالغة ، ولكنه يذكر قوائم بالاماكن التي اخضعها عبد الرحمن في اسبانيا ، ولا يزال كثير منهـا يحتفظ باسمه إلى اليوم كألبيرة مثلًا : ويسرد في بعض الاحوال تفاصيل دقيقة عادلة . يقال إنه في عام ٣٠١ غزا قرمونة ، وكان ثار فيهـا

ابن سوادة ، فسأله أن يمهله شهوراً ، يكون بعدها عبده المأمور .
فأسعفه الامير، وعاد بالفضل. وهاك الابيات المتعلقة بالسنة التالية :

سنة اثنتين وثلاث مئة

كان بها القفول عند الجيئه   من غزو إحدى وثلاث مئه
فلم يكن يدرك في باقيها   غزو ولا بعث يكون فيها

وتلخص الفقرات التالية الوقائع ، وهي على قسط حسن من الوضوح والتفصيل ، وإن لم تكن شاعرية تماماً . وهاك ما جاء في سنة ٣٠٤ :

وبعدها كانت غزاة أربع   فأي صنع ربنا لم يصنع
فيها يبسط الملك الاواه   كلتا يديه في سبيل الله
وذاك أن يقود قائدين   بالنصر والتأييد ظاهرين
هذا الى الثغر وما يليه   على عدو الشرك أو ذويه
وذا الى شم الربا من مرسية   وما مضى جرى الى بلنسية
فكان من وجهه الساحل   القرشي القائد القنابل
وابن أبي عبدة نحو الشرك   في خير ما تعبية وشك
فأقبلا بكل فتح شامل   وكل ثكل للعدو ثاكل
وبعد هذي الغزوة الغراء   كان افتتاح ليلة الحمراء
أغزى بجند نحوها مولاه   في عقب هذا العام لا سواه
بدرا فضم جانبيها ضمه   وعمها حتى أجابت عنوه
وأسلمت صاحبها مقهورا   حتى أتى بدر به مأسورا

ويدون تحت عام ٣٠٥ انتصاراً على ثائر مسلم ، وهزيمة ايضاً مني بها ابو العباس احد قواد الخليفة، وكان يقول، انجد الانجاد ، ولكنه سار في غير رجال حرب ، فأسلموه حين احاط به العدو .

وتستمر القصيدة من عام إلى عـام وتنتهي بسنة ٣٢٢ . وهي رتيبة بشكل مفرط ، إذ تكرر نفس الاقوال ، من وصف مجموعة من الغـارات ، والحصار ، والتسليم ، والتخريب ، وهدم الحصون ، والثورات، وفرض الشروط وما اليها . ويذكر عدداً كبيراً من الاسماء المحلية ، التي نالها قدر كبير من التحريف في الطبعات المصرية ، ولكن من المستطاع ولا شك تصحيحها بمقابلتها على كتب التاريخ النثرية ، او تحقيقها في الكتب الجغرافية.. ويورد اسماء قليل جداً من الاعداء ، وينعتهم عادة بألقاب السب .

وينبغي على المرء ألا يتوقع ، مما لا يدعي اكثر من كونه قائمة بالغارات ، تاريخاً متواصل الحلقـات او واضحاً ، ولذلك ليست القصيدة اكثر من مذكرات، وليست بجيدة . ويجب على المؤلف، كي يودهـا تاريخها ، أن يخصص دراسة اكثر من التي ذكرها للاوضاع ، ليخبرنا بشيء عن الحالة الداخلية في المدن المفتوحة ، والاسباب التي أدت إلى الثورات المتعاقبة ، والاعدادات التي أدت في كل حـالة الى النجاح او الفشل . يفعل ما يشبه ذلك احسن مؤرخي الاغريق ، ولكن قليلاً من الكتب العربية التأريخية تذهب الى هذا المدى : وإن عالجت احسن اصنافهـا في شيء من الاطالة والتفصيل الحالة الداخلية للبلاد التي تسجل تاريخهـا ، لتزيد

ما ترويه وضوحاً وتعليمية . وليس من اليسير على المادح ان يقوم بشيء من هذا القبيل ، لأن الترجمة الصحيحة للملك ، او القائد ، او رجل الدولة، بينما تضم تصف المصاعب التي اضطروا الى مواجهتها، تستطيع ان تعزو اليهم في احوال قليلة ألواناً متغايرة من النجاح في معالجة امثال هذه الصعوبات : ويكشف مثل هذا القول عن وجوه الضعف والفشل ، بل من الممكن أن يكشف جرائم ، كشفه عن القدرة والنجاح، عند المتمسكين بالفضيلة . وإذن فعلى المادح ، الذي يخاف أن يجرح شعور راعيه ، أن يقتصر على ما يسره .

ومن المحتمل ان ينظر كل قارىء إلى قصيدة ابن المعتز نظرته إلى اعظم هذه الأمثلة الثلاثة من التاريخ المنظوم تعليمية وفكرية، على حين تتمتع قصيدة ابي فراس بما يجعلها أقدر على المطالبة باسم الشعر ، وتضم حقاً أبيات على قدر كبير من الجودة . وليس في ارجوزة ابن عبد ربه صفة تمدح سوى السهولة التي قيل بها الرجز وربما بعض المعرفة بالجغرافيا الاسبانية . ويقترف المؤلف غلطة سخيفة حين يجعل المسيحيين يقسمون بالأصنام المذكورة في القرآن. وقد حصلت مختاراته على بعض الشهرة لطبيعة محتوياتها الموسوعية : ولكن الصاحب بن عباد وجدها مخيبة للآمال ، إذ كان يتوقع من كتاب لمؤلف اسباني ان يحتوي على مواد اصيلة اكثر مما يحتوي عليه الكتاب الحالي . فاستشهد بما جاء في سورة يوسف : « هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا » .

وتمثل هذه القصائد الثلاثة أسمى مرحلة وصلت اليها الملحمة التاريخية في الشعر العربي : ومن المرجح ، كما قد رأينا ، ان يفضل اي قارىء لها قصيدة ابن المعتز . اما الآثار الاخرى التي يطلق عليها لقب «القصائد المؤرخة» فأبعد من هذه كثيراً عن التاريخ . كذا قصيدة ابن بدرون ، الكاتب الاسباني ، وهي خليط من الاشارات التاريخية ، أريد أن تفسر في شرح . وكذا القصيدتان اللتان تدعيان تأريخ الحميريين ، وواضح انهما متأخرتان وغير تاريخيتين : إذ يجب ان يترك كشف الستار عن هذا التاريخ إلى من يأتي من المنقبين والأثريين .

ومهما يكن من قول ، فسيجد دارسو تاريخ الدول الاسلامية في الدواوين الشعرية عوناً لهم ، لا لأنها تسجل الوقائع ، التي قلما تسجلها ، وانما لأنها تبرز كثيراً من الاوضاع السياسية ، وترمي إلى الهدف الذي ترمي اليه الصحافة الشعبية الى حد ما . ومن الطبيعي ان الدواوين تختلف كثيراً في امكانية استخدامها لهذا الغرض تبعاً لسير مؤلفيها : واكثرها تعليمية امثال ديوان البحتري في القرن الثالث والتعاويذي في السادس ، ذلكما الديوانين اللذين عاش مؤلفاهما في بلاط ملوك مختلفين وابرزا في امانة المشاعر التي اثارتها الاحداث المعاصرة . وقالا ما اراد الخلفاء او الوزراء ان يقولوه: ونستطيع ان نستخلص من قصائدهما ما كان يشغل انتباه الرأي العام ، وكيف رغب الجمهور في اعتباره . وتجعلنا قصائد البحتري

نشعر كيف اثر خطر الزنج في شعب العراق . ويظهر التعاويذي الاحساس الذي اثارته الحروب الصليبية . اما حين لا تدوم صلة الشاعر بالبلاط، كما في حالة المتنبي ، الذي سعى وراء حظه في عدد كبير من قصور الامراء ، فتقل قيمة المعلومات المنقولة: ويكون الشاعر في حالة غير كافية لتدمجه في جماعة ليصور مشاغلها تصويراً دقيقاً .

هكذا اجبنا على سؤال يقدم احياناً ويجاب عليه بالنفي : — وهو أيوجد في الشعر العربي ما يماثل الملحمة ؟ فاذا كنا نفهم من الملحمة القصيدة المؤرخة ، التي قد تمثل لما بخلاص بيت المقدس لتاسو Tasso ، او الملاحم الهندية العظيمة ، فقد رأينا اذن ان اللغة تبين بعض الجهود للسير في هذا الاتجـــاه : وطبيعي ان المؤلفين اختاروا بحر الرجز ، باعتباره الاسلوب الملائم للشعر التعليمي . وبينما صنع ابن المعتز عملاً فنياً ، لم يذهب ابن عبد ربه الى اكثر من مذكرات او موجز للوقائع يسهل تذكره عن الوصف النثري. اما عدم انتاج اللغة في هذا السبيل شيئاً اكثر جودة من القصائد التي حللناها فراجع اولاً الى ان القصيدة بانتقالها الفجائي من موضوع الى موضوع لم تكن صـــالحة لأن تعطي قصيدة ذات موضوع واحد مترابط . وثانياً الى انه لا يصلح لهذا التأليف غير بحر الرجز ، وعندما لا تلتزم القافية الى في شطري البيت الواحد . اما الصورة القديمة من القصيدة ، التي يلتزم فيها قافية واحدة ،

واما الاوزان الاخرى ، فكانت اشق كثيراً من ان تخضع لموضوع طويل . ولذلك بقيت امثال تلك المحاولات التي حللناها نادرة وان استمر المادحون والمهاجون بالطبع يشيرون الى الاحداث الهامة المتصلة بموضوعاتهم : وكثيراً ما يشير المؤرخون الى هذه الاشارات لجمال الشعر ، اكثر من اشارتهم اليها لتأييد ما يروونه .

الفصل الخامس

مؤرخو القرن الثاني

[ابو مخنف لوط بن يحيي]

يعتبر تأسيس بغداد علامة تميز ابتداء الحقبة الادبية في العربية بمعنى ان الكتب اخذت تؤلف لتقرأ وتروى وتحفظ ، وان كان من العسير النيل من ايمانهم بأن الرواية الشفوية وحدها هي الوسيلة الموثوق بها . وليس من اليسير حقاً ان نميز بين المؤلف الذي قصد ان تروى مادته والمؤلف الذي دونها : وكان من المستطاع ان توجد الاخبار المعزولة مدونة او مروية شفاها ، ويبدو ان الآثار التي وجدت قبل كتب التاريخ المتصلة المطردة . كانت على هذه الصورة . ومن هذا اللون كان ابو مخنف لوط بن يحيي، الذي توفي حوالي ١٥٧ ، ويعزى اليه ٣٢ كتاباً . وقد ادخل الطبري في كتابه كثيراً من رواياته . ومن المفترض ان رواة مختلفين من هذه الحقبة المبكرة تخصصوا في اجزاء من موضوعهم : وكان ابو مخنف اكثر من غيره معرفة بأمور العراق ، والمدائني بشئون خراسان ، والهند ، وفارس ، والواقدي بالحجاز ، على حين كانوا

جميعا على معرفة متكافئة بفتوح سورية . ويعالج كل كتاب من كتب أبي مخنف جميعها حادثا واحدا : فهي رسائل عن مواقع ، أو وفيات المشهورين ، أو أحداث كان لها أهميتها في التاريخ القديم . وقد قال عنه أحد المتزمتين : هو كوفي ، وليس حديثه بشيء .

[عوانة بن الحكم]

وقد نذكر بين رواة المعرفة الذين ظهروا قبل شيوع الكتب المدونة عوَانة بن الحَكَم ، وكان من أصل وضيع ، إذ كان أبوه عبداً خياطاً وأمه أمَة سوداء ، ولكن استقى من معارفه علماء الجيل التالي ؛ واختلف في وفاته بين عامي ١٤٧ و ١٥٨ . وكان من العلماء بالفتوح خاصة ، مع علم بالشعر . وقيل إنه كان عثماني الهوى يضع الأخبار لبني أمية : ولكن رواية أخرى تجعله علويا ، يأسف لفشل محمد بن عبدالله ، الذي خرج على الخليفة المنصور ، ولكنه هزم وقتل . ويقول ياقوت إن عامة أخبار المدائني ، الذي سنذكره حالا ، عن عوانة : وكان النحوي والمنقب المشهور ، الأصمعي ، ممن سمعوا منه . ولا تلقي الأخبار التي يرويها ياقوت عنه غير قليل من الضوء على نشاطه معلماً أو جامعاً للمعلومات : وأهمها تلك التي تجعله يقول ، عندما سئل عن قبيلته : من قوم إذا نسي الناس علمهم حفظوه عليهم. فقال السائل : فأنت إذن من كلب ، وهي قبيلة ابن الكلبي المشهور ، الذى سيقابلنا توا . ولا يقوم هذا الحكم العام على أمثلة كثيرة .

ومها يكن الأمر فإنهم لم يميزوا أعمال الرواة من غيرهم قبل أن تتخذ الروايات صورة ثابتة صالحة للتدوين . فنجد الرجال يذكرون بين رواة الأحداث التاريخية والأحكام الفقهية. إذ أن اعتماد القانون على الحديث والحديث على التاريخ جعل في الإمكان الخلط بين مهمة العلوم الثلاثة حتى في العصور المتأخرة جدا .

[محمد بن إسحاق]

ويبتدىء هذا الأدب النثري بصورة واقعية بسيرة النبي لمحمد بن إسحاق ، الذي كان جده يسار من سبي عين التمر ، وهو أول سبي دخل المدينة من العراق . واختلف في وفاته بين ١٥٠ أو ١٥١ أو ١٥٢ : ودفن بمقابر الخيزران، عند قبر أبي حنيفة الإمام. ويقال إنه أول من جمع مغازي رسول الله . ويبدو أنه وقع في مشاكل في المدينة لسعيه وراء الأخبار لدى فاطمة بنت المنذر بن الزبير ، فكره ذلك زوجها هشام بن عروة . فهرب إلى الحيرة ، وكان بها المنصور ، فأهداه مغازيه : وسمع منه أهل الجزيرة والري، حيث أقام كثير من رواة أخباره . وتختلف الآراء أشد الاختلاف في تعديله : فلم يرو عنه رأس محدثي القرن الثالث . ويروى عن آخرين أنهم قالوا : لا يزال في الناس علم ما عاش محمد ابن إسحاق. ولكن مالك بن أنس أطلق عليه لقب «الدجال»، وربما كان سبب ذلك نقده أحاديث مالك . وأخذ عليه أيضاً أنه كان يتشيع ، ويروي عن حفيد الحسن : وأنه استخدم جماعة من الناظمين ليؤلفوا له الأشعار ليدخلها في سيرته ، كأنما نظمت في

مناسباتها ، مثل القصيدة التي يدافع فيها أبو طالب عن مسلكه امام مواطنيه ، والقصائد المنسوبة إلى كلا الفريقين في المغازي ، الخ . أضف إلى ذلك أنه غلط غلطاً فاحشاً في الانساب التي ذكرها : وأنه روى عن اليهود والمسيحيين ، الذين يسميهم «اهل العلم من اهل الكتاب الاول» . وألف إلى جانب سيرته كتاب الخلفاء (لا شك أنه يريد الامويين) وكتاب المبدأ[1] .

ولم نحصل على سيرة ابن إسحاق العظيمة ، كما هو معروف : وإنما نعرف محتوياتها من المقتطفات التي يوردها ابن هشام والطبري ، والتي يكمل بعضها بعضاً الى حد ما .

[المدائني]

وبقية مؤلفي هذه الحقبة اقرب إلى ان يكونوا جامعين لاخبار خاصة منعزلة ، لا شك أنها اتخذت صورة محددة ، ولكن الشك حول نيتهم: أكانوا يقصدون بها التأليف او مجرد التدوين لمساعدة الذاكرة . ومن اكثر هؤلاء المؤلفين تأليفاً علي بن محمد بن عبدالله المدائني ، المولود ١٣٥ والمتوفى ٢٢٥ . وكان مولده ومنشؤه البصرة ، ثم صار إلى المدائن، التي نسب إليها ، ثم صار إلى بغداد ، فلم يزل بها الى ان مات. وحظي بحب إسحاق بن إبراهيم الموصلي ، الذي نعرف من الاغاني أنه كان موسيقياً محترفاً ، ولكنه كان

(١) كتاب المبدأ هو الجزء الاول من المغازي ، ويراد بالمبدأ تاريخ البشر منذ الخلق الاول الى ما قبل الاسلام . وانظر المغازي الاولى ومؤلفوها لهوروفتس ، ترجمة المترجم الحالي .

ماهراً في غيرها من الموضوعات. ويروى خبر عن بضعة رجال من المشهورين ، كانوا جالسين العشية على باب مصعب الزبيري ، فمر بهم رجل على حمار فاره وبزة حسنة . وعرف احدهم أنه المدائني وسأله : إلى أين ؟ فأجاب : « إلى هذا الكريم الذي يملأ كمي من اعلاه الى اسفله دنانير ودراهم » . يريد إسحاق الموصلي . فقال عنه يحيي بن معين، وهو المحدث العدل الضابط ، ثقة ، ثقة ، ثقة . اما القصة التالية فتنتقص منه . روى المدائني خبراً عن إغارة خالد على سورية ، تضمن بيتاً من الشعر عن دليله رافع . فصحف المدائني كلمة منه ، فقال الراوي:«وعلمت أن علمه من الصحف » -لا من الرواية ، كما يجب . ويروي المدائني نفسه خبراً عن امر المدائني إدخاله عليه ، وحديثه إياه ، فحدثه بأحاديث ، ثم ذكر لعن بني أمية لعلي بن أبي طالب . ويسجل تأييداً لذلك أنه لم يسمع بالشام في عهد الامويين احداً يسمي علياً ولا حسناً ولا حسيناً : وإنما معاوية ويزيد والوليد من اسماء خلفاء بني أمية . فمر مسافر في ذلك الوقت بدار فاستسقى صاحبها ، فسمعه ينادي ابناً له باسم الحسن ليسقيه . فسأل المسافر : كيف سمى ابنه بذلك الاسم . فكان جوابه : إن اهل الشام يسمون اولادهم بأسماء خلفاء الله ولا يزال احدنا يلعن ولده ويشتمه ، وإنما سميت اولادي بأسماء اعداء الله ، فاذا لعنتُ إنما ألعن اعداء الله . وكان المقصود من هذا الخبر أن يؤثر في الخليفة : ولعله فعل ، إذ عزم مدة أن يتخذ من احد العلويين ولياً لعهده . ولكن الراوي افترض ان الخليفة سيذهب الى أن ذلك اللعن مناسب .

وتشبه قائمة كتب المدائني التالية مجموعة من الفصول او الابواب اكثر من شبهها الكتب المطردة . وتنقسم إلى مجموعات ، أولاها اخبار النبي ، وامثلتها « كتاب امهات النبي» أي جداته . صفة النبي . اخبار المنافقين . عهود النبي . تسمية المنافقين ، ومن نزل فيه القرآن منهم ومن غيرهم . — والمجموعة الثانية اخبار قريش ، وتستهل بنسب قريش واخبارها. فكتاب العباس بن عبد المطلب. واخبار أبي طالب وولده .

المجموعة التالية : مناكح الاشراف واخبار النساء : ويبدو أنها كانت مجموعات من الاخبار الغريبة ، مثل كتاب من جمع بين اختين، ومن جمع اكثر من اربع، ومن تزوج مجوسية. و كتاب من قتل عنها زوجها . و كتاب من هجاها زوجها او شكاها .

المجموعة التالية : إخبار الخلفاء . وهي كل ما يجب أن نسميه رسائل Monographs ، وواضح أنها مؤلفات قصيدة تعالج بعض الابحاث الصغيرة . كتاب من تزوج من نساء الخلفاء . تسمية الخلفاء و كناهم واعمارهم . حلى الخلفاء . وفي آخر هذه القائمة كتاب اخبار الخلفاء الكبير ، ابتدأه بأخبار ابي بكر ، وختمه بأخبار المعتصم . ولا شك أن ما نجده عند المؤرخين المتأخرين ، مروياً عن المدائني ، مقتطفات من هذا الكتاب .

المجموعة التالية في الاحداث ، وهي رسائل صغيرة تعالج الاحداث الرئيسية في تاريخ الاسلام : كتاب الردة ، أي الثورة التي تلت وفاة النبي . كتاب الجمل، الموقعة التي هزم فيها علي عائشة

وحزبهـا . كتاب النهر وان . كتاب الخوارج . خطب علي كرم الله وجهه و كتبه إلى عمـــاله . اخبار الحجاج ووفاته . ويضيف ياقوت إلى هذه القائمة الطويلة كتاباً كبيراً لم يذكره الفهرست ، باسم كتاب الدولة العباسية ، ولكن بعضه وقع إلى ياقوت بخط السكري ، العالم المنقب .

المجموعة التالية في الفتوح: فتوح الشام منذ ايام ابي بكر والى ايام عثمان . فتوح العراق منذ ايام ابي بكر — تؤرخ هذه الفتوح عـادة بتاريخ متأخر بعض الشيء — وإلى آخر ايام عمر . فتوح خراسان واخبار امرائها ، كقتيبة ونصر بن سيار . وتعالج اثنتان من هذه الرسائل الصغيرة الهند : وهما كتاب ثغر الهند ، و كتاب اعمال الهند . ويبدو ان القائمة الطويلة بهذه المقالات تغطي جميع منطقة الفتوح الاسلامية عدا افريقية الشمالية واسبانيا ، اللتين لا تذكران فيهـــا . ولعل كثيراً من المادة نفسها دخل في كتاب البلاذري الذي وجد في العصر التالي . وقد عزى إلى الواقدي في حقبة غير ســـابقة على عصر الحروب الصليبية مجموعة من الكتب الخاصة ببعض تلك الفتوح ، والمصطبغة بصبغة خيـــالية محضة في ظواهرها وعلاجها .

المجموعة التالية في اخبار العرب ، التي تضم مجموعات من المواد الغريبة التي تمثل الاساليب العربية : كتاب من نسب إلى امه ، وكتاب من سمي باسم امه ، وكتاب الخيل والرهان ، وكتاب بناء الكعبة .

وتعالج المجموعة التالية التاريخ الشعري: وكثير من الموضوعات ذو عناوين توحي بأن المؤلف كان مهتماً بالتفاصيل الغريبة: كتاب من تمثل بشعر في مرضه، كتاب الابيات التي جوابها كلام، كتاب من وقف على قبر فتمثل بشعر، كتاب من بلغه موت رجل فتمثل شعراً او كلاماً، كتاب من تشبه من النساء بالرجال، كتاب من فضل الاعرابيات على الحضريات، الخ.

ويذكر ياقوت بالاضافة الى هذه المجموعة الكبيرة من الرسائل الصغيرة قائمة اخرى بالكتب المؤلفة، ويبدو انها تضمنت مادة اكثر اصالة من الكتب السابقة، التي لعلها كانت روايات مساقة بعضها وراء بعض: ومما يقترب من التاريخ منها كتاب قضاة اهل المدينة؛ قضاة اهل البصرة؛ ضرب الدراهم والصرف؛ كتاب المدينة؛ كتاب مكة. اما بقية الكتب فاكثر اصطباغاً بالصبغة الاخلاقية، واحدها مقالة جغرافية يحتوي على الكور وجباياتها.

وواضح أن نشاط المدائني الادبي مدهش، حتى لو كانت الرسائل ذات حجم متوسط. وظاهر أنه كان ميالاً إلى المعارف الغريبة والتفاصيل المشوقة، ولكنه يمثل مرحلة انتقال من الرواية المفردة إلى الكتاب المطرد، لو وثقنا بالخبر القائل إنه ألف كتباً من الصنف الاخير.

وتوجد عدة مقتطفات من ابحاث المدائني عند المؤرخين المتأخرين، وفي العقد الفريد للجمّاعة الاسباني ابن عبد ربه. وربما كانت مجموعته من خطب علي كاملة في هذه الكتب، ولعله راوي

مجموعة الرسائل المتبادلة بين علي ، ومعاوية ، وغيرهما ، المحفوظة في الكتاب نفسه ، والمذكورة في غيره من الكتب . ويقال إن أكثر مادته عن عوانة . ولكن القيمة التي يمكن أن نعطيها لهذه الوثائق مشكوك فيها أشد الشك ، كما سنرى بعد . فقد جمع احد المشهورين من آل علي ، الشريف الرضي ، في حقبة متأخرة ، هي اواخر القرن الرابع ، مجموعة مما بقي من آثار جده العظيم سماها نهج البلاغة ، وظاهر أن هذا الشخص لم يثق كثيراً بمجموعة المدائني . وعلينا أن نبحث في المجموعتين كلتيهما ، في الرسائل والخطب ، عما إذا كان هناك احتمال بأن يطلع شخص على الرسائل التي تسلمها الفريقان كلاهما ، أو على الخطب المدونة أو المحفوظة ، في الوقت الذي يقصد منها أن تؤثر في سلوك الناس ، لا أن تثير اهتمامهم باعتبارها اثراً تاريخياً أو نمطاً من انماط الاساليب . ويزداد احتمال الاحتفاظ بالرسائل بعد وجود « ديوان الخاتم » ، ومن المحتمل أن الرسائل المتبادلة بين المنصور ومحمد بن عبدالله العلوي ، المطالب بالخلافة ، تاريخية ، على الرغم من اختلاف النسخ الواردة عند الطبري والمبرد في بعض التفاصيل الهامة . ولكن المرجح أن فرص الاحتفاظ بأمثال هذه الرسائل قبل إيجاد هذا الديوان كانت قليلة ضئيلة .

[هشام الكلبي]

ويشبه المدائنيّ في موضوعاته وطريقة علاجه هشام بن محمد بن السائب الكلبي ، الذي كان من الطبقة الاولى في الانساب : ويقال

إن أحد كتبه في هذا العلم لا يزال موجوداً . ويقال إنه توفي عام ٢٠٤ أو ٢٠٦ : وتزيد قائمة كتبه عن ١٥٠ . وقد طبع أحدها ، وهو كتاب الاصنام ، وحجمه صغير ، ويرجح أن بقية كتبه من الحجم نفسه . ويشتبه كثير من العناوين بعناوين تلك المقالات المذكورة في قائمة المدائني . ويعالج كثير منها التاريخ الجاهلي ، مثل كتاب ملوك كندة ، وكتاب ملوك اليمن من التبابعة ، وكتاب ملوك الطوائف – وهي عناوين لا توحي بكثير من الثقة ، إذ ليس من المحتمل أن يكون لدى ابن الكلبي معرفة بالنقوش التي لا يمكن إبانة هذا التاريخ إلا منها ، والتي كان الهمداني الجغرافي العربي الوحيد الذي حصل عليها واستخدمها في مثل هذا البحث . وعالجت عدة رسائل ألواناً مختلفة من الماضي الجاهلي ، مثل كتاب اديان العرب ، وكتاب حكام العرب ، وكتاب الكهان ، وكتاب الجن . ولكن بعضها ذوو قوائم بأنها تاريخ فعلي ، مثل كتاب تاريخ اخبار الخلفاء ، وكتاب صفات الخلفاء ، وكتاب أولاد الخلفاء . وعالج غيرها احداثاً كانت في عهد النبي ، وكان غيرها ذا صبغة جغرافية او إحصائية . ويقال إنه عاش في كنف احد البرامكة .

[الواقدي]

ولا شك ان المؤلف الذي حاز اعظم الشهرة في هذا القرن هو محمد بن عمر الواقدي ، الذي طال به العمر من ١٣٠ الى ٢٠٧ . ويعد الواقدي اعلى منزلة من المدائني والكلبي كليهما ، ويقال إنه

سمع من مالك بن أنس وسفيان الثوري، وكلاهما من اسمى الفقهاء منزلة : ويقال ايضاً إنه لقي ابن جريج الذي يرتبط اسمه بمبدأ دراسة الحديث . وكان الواقدي حجة في الحديث والفقه شأنه في التاريخ مثله مثل الطبري الذي سيشغلنا في المحاضرة التالية . وقد ولاه الرشيد القضاء بشرقي بغداد ، ثم ولاه المأمون القضاء بعسكر المهدي . ويروي ياقوت قصة تمثل علاقة الواقدي بالمأمون . كتب الواقدي إلى المأمون مرة يشكو ضائقة ركبه بسببها دين، وعيّن مقداره . فوقع المأمون على قصته بخطه : فيك خلتـــان : سخاء وحياء ، فالسخاء أطلق يديك بتبذير ما ملكت ، والحيـاء حملك على أن ذكرت لنا بعض دينك ، وقد امرنا لك بضعف ما سألت، وإن كنا قصرنا عن بلوغ حاجتك فبجنايتك على نفسك ، وإن كنا بلغنا بغيتك فزد في بسطة يدك ، فإن خزائن الله مفتوحة ، ويده بالخير مبسوطة ، وأنت حدثتني حين كنت على قضاء الرشيد: أن النبي صلى الله عليه وسلم قـــال للزبير : يا زبيرُ ، إن مفاتيح الرزق بإزاء العرش ، ينزل الله سبحانه وتعالى للعباد أرزاقهم على قدر نفقاتهم ، فمن كـثّر كـثّر له ، ومن قـلّل قُلّل عليه . قـــال الواقدي : نسيت الحديث ، وكان تذكيره لي به أعجب من صلته .

وهـــاك قصة يفترض أن الواقدي رواها . قال : كان لي صديقان احدهما هاشمي ، وكنا كنفس واحدة ، فنالتني ضيقة شديدة وحضر العيد . فقـالت امرأتي : اما نحن في انفسنا فنصبر

على البؤس والشدة ، واما صبياننا هؤلاء فقد قطعوا قلبي رحمة لهم ، لانهم يرون صبيان الجيران قد تزينوا في عيدهم واصلحوا ثيابهم ، وهم على هذه الحال من الثياب الرثة ، فلو احتلت بشيء نصرفه في كسوتهم . قال : فكتبت إلى صديقي الهاشمي اسأله التوسعة عليّ بما حضر . فوجه إلي كيساً مختوماً ذكر أن فيه ألف درهم . فما استقر قراري إذ كتب إلي الصديق الآخر يشكو مثل ما شكوت الى صاحبي . فوجهت اليه الكيس بحاله . وخرجت الى المسجد فأقمت فيه ليلي مستحيياً من امرأتي . فلما دخلت عليها وأخبرتها بما فعلت ، استحسنت ما كان مني ، ولم تعنفني عليه . فبينا انا كذلك اذ وافى صديقي الهاشمي ومعه الكيس كهيئته ، فقال لي : أصدقني عما فعلته فيما وجهت اليك . فعرفته الخبر على وجهه ، فقال : إنك وجهت إليّ وما املك على الارض الا ما بعثت به اليك ، وكتبت الى صديقنا اسأله المواساة ، فوجه اليّ كيسي بخاتمي . قال الواقدي : فتقاسمنا الكيس اثلاثاً . ونما الخبر الى المأمون ، فدعاني ، فشرحت له الخبر ، فأمر لنا بسبعة آلاف دينار ، لكل واحد ألفا دينار ، وللمرأة ألف دينار .

ويروي ياقوت خبراً عن ضخامة مكتبة الواقدي ، يقول : لما تحول الواقدي من الجانب الغربي يقال انه حمل كتبه على عشرين ومئة وقر : وبرغم ذلك كله كان يقول مفتخراً : ما من أحد الا وكتبه اكثر من حفظه ، وحفظي اكثر من كتبي . ويقتضي ذلك أن الثمرات الادبية للاعوام الستين من عمره كانت غير عادية :

وبالرغم من ذلك يبدو ان الادلة قوية على كراهية التدوين التي استمرت حتى الى ما بعد منتصف القرن الثاني ، بحيث لا يشك فيها .

وقائمة كتب الواقدي طويلة ومتنوعة : وكثير من الكتب المذكورة فيها من النمط الذي كان المدائني يؤثره : رسائل صغيرة عن احداث خاصة في التاريخ الاسلامي : ويمثلها كتاب السقيفة وبيعة ابي بكر : وكتاب وفاة النبي : وكتاب الردة والدار ، يريد بالدار مقتل عثمان : وسبب جمعه بين هذين الحادثين غير واضح : وكتاب صفين ، الخ . وعلى رأس هذه الكتب التاريخية كتاب التاريخ الكبير ، وكتاب التاريخ والمغازي والبعث ، وهو تاريخ لبعثة النبي ومغازيه . ونستخلص من العناوين أن جميع هذه الكتب ، لو بقيت ، لكان لها قيمة تاريخية كبيرة .

واطرى الباحثون الاوروبيون الواقدي لاهتمامه الخاص بالازمنة ، واحكام ثقات المسلمين عن كتابه في جانبه في معظم الاحيان ، وان لم تجمع على ذلك . والكتاب الوحيد الذي رأى الضوء من كتبه جزء من مغازيه ، نشر هنا (كلكتا) ، وترجمة المانية لمخطوط أكمل محفوظة في المتحف البريطاني . وتضم قائمة كتبه بعض الفتوح ، فتوح الشام ، وفتوح العراق . ولكن الكتب التي طبعت تحت هذه الاسماء معزوة اليه ، كما قد رأينا ، كتب ظنية ، وليست بذات قيمة تاريخية .

[الهيثم بن عدي]

والهيثم بن عدي ، الذي عـــاش فيما بين سنتي ١٣٠ و ٢٩٠ ، كاتب آخر من المكثرين في التأليف ، يكثر ورود اسمه بين رواة الاخبار التاريخية . ويشبه مجال دراساته مجال ابن الكلبي ، الذي كان يذوب امامه : لتفوقه عليه تفوقاً ظاهراً . ولا يثق عظماء المحدثين بروايته . ويروى عن جارية له انهـا قالت : كان مولاي يقوم عامة الليل يصلي ، فإذا اصبح جلس يكذب . وقد امتد حب استطلاعه الى الشئون الخاصة لمعاصريه ، الذين دفعوا الشعراء لهجائه . ويضم ديوان ابي نؤاس اهجية لاذعة فيه ، يقال انها قيلت فيه بسبب اخفاقه في معـاملة هذا الرجل الهام بالاحترام الملائم له عندما حضر لسماع احدى محاضراته . وتضم قائمة كتبه الطويلة جداً مجموعة من عناوين الرسائل الصغيرة التي تعـــالج فصولاً من التاريخ القبلي الجاهلي ، او احداث صدر الاسلام ، او مواد أثرية متصلة بالمدن الاسلامية والهيئات الاسلامية . فنجد فيهـا تواريخ ولاة وقضاة الكوفة ، والبصرة وما شابهها . ولكن فيهـا ايضاً « كتاب التاريخ مرتباً على السنين » ، ولا بد أنه مثـال قديم جداً من امثلة هذا اللون الذي سيصير بعد لوناً عـادياً . وربما نستنتج ان كتبه حازت شهرة كبيرة في حياته من الخبر القائل بأن الخليفة هارون الرشيد عرف حالاً انه الشخص المذكور في هجاء ابي نؤاس ، عندما شكي امامه .

[الزبير بن بكار]

يقابلنا شخص آخر كثيراً بين رواة الاخبار التاريخية ، هو الزبير بن بكار. ويقال انه من ابناء عبدالله بن الزبير -الذي نصب نفسه خليفة مدة- صليبة . ومات قاضياً على مكة في ٢٥٦ . وقائمة كتبه على شيء من الطول، وتتألف بصفة رئيسية من تراجم الشعراء ؛ ولكن بعضها تناول احداثاً تاريخية . ونجد في القائمة مثالاً قديماً من امثلة تسمية الكتب بأخبار من ألفت لهم . فقد سمى مقالة تاريخية «الموفقيات» ، ألفها للموفق بالله ، اخي المعتمد الذي كان القائم بأمر الدولة .

ويوجد كثير من الاحاديث او الروايات التي جمعها هؤلاء الرجال سليماً في الكتب المتأخرة : وما نجده واضحاً في تلك الحقبة هو عملية جمع المكتبات ، وان ارتحل الراغبون في أن يكونوا ثقات في التاريخ في انحاء الامبراطورية ليسمعوا المحاضرات المشهورة . فيروى أن ابا عون بن عطاء وصلت الكتب في بيته الى السقف : وقد توفي سنة ١٥٤ ، أي في الوقت الذي لم يكن فيه الادب النثري الا شيئاً بادئاً . ويضاف أن ابا عون احرق مكتبته قبل وفاته ، وهو عمل يروى عن عدد غير قليل من الرجال . وتوجد رسالة حفظها ابو حيان التوحيدي بتاريخ سنة ٤٠٠ تقريباً ، يدافع فيها عن مسلكه هذا بالاستشهاد بكثير من المشهورين . ويتوهم المرء ان الدافع الاساسي كان الرغبة في ان يعتبره الناس المرجع المطلق في موضوعه : اذ لو حفظت المراجع المدونة لمؤلف

ما ، فربما فضل من جاء بعده ذكر هذه المراجع على الكتاب القائم عليها . وتدل عبارة الخبر في حالة ابي عون انه فعل ذلك تورعاً ؛ إما أن هذا المنقب رجع الى الرأي القائل بكراهية تدوين الكتب ، او أنه ظن أن محتوياتها تافهة . وجدير بالملاحظة أن الملكية في الكتب لم تكن بعد حقاً معترفاً به ، في تشريع ابي يوسف ، في عهد هارون الرشيد : والكتب الوحيدة التي يبدو أن هذا الفقيه عرفها هي القرآن ودواوين الشعر .

[ابراهيم بن محمد بن سعيد]

على الرغم من شيوع التاريخ المطرد في القرن الثالث ، على حين تناثر ما وجد منه في القرن الثاني ، احتفظت الرسائل الصغيرة بشيوعها في القرن الثالث . وكان من المؤلفين المكثرين من هذا اللون ابراهيم بن محمد بن سعيد بن هلال ، الكوفي الاصل ، والذي انتقل منها الى اصفهان ، واقام بها الى ان مات في سنة ٢٨٣ . وادعى أنه سليل عدة آباء مشهورين : فكان احد اجداده عم المختار بن ابي عبيد المغامر ، وهو الذي لجأ اليه الحسن حفيد النبي . وكان زيدياً اولاً ، وانتقل الى الامامية ، وصار من مشهوريها . وتبدو قائمة كتبه التي تشغل صفحة كاملة كأنما هي نسخة من قائمة بعض المجموعات في ثبت المدائني : ففيها كتاب السقيفة ، وكتاب الردة ، وكتاب مقتل عثمان ، وكتاب صفين ، وكتاب الحكمين ، الخ . ولا شك ان جميع هذه الكتب تبرز هذه الاحداث الهامة من وجهة نظر الفرقة التي انتمى اليها . وكان كالواقدي فقيهاً

ايضاً ، وألف نشرات ومقالات عن فصول منفصلة . وعبر عن شعوره تجاه وطنه بكتاب فضل الكوفة ومن نزلها من الصحابة . وينتمي احد كتبه ، واسمه كتاب من قتل من آل محمد ، الى لون من الكتب كثير معروف في ادب الشيعة .

ويبدو انه لم يبق من تواريخ هذه الحقبة ما يجعلنا قادرين على الحكم الصادق عليها ، سوى تاريخين منها ، تاريخ محمد بن اسحاق والواقدي . اما محمد بن اسحاق فمن المستطاع وصفه بأنه كاتب ساحر ، يعرف كيف يجمع مادته بطريقة تبقي قارئه متشوقاً : ويستطيع أن يعطينا عن كبار الرجال الصنف الذي ييسر لنا تصورهم من المعلومات : ويستطيع أن يقدم لنا ، حين تحتاج الاخبار الى تعليق من جانب المؤلف ، ملاحظات من المؤكد أنه لا يستطاع اغفالها ، وان لم تكن مقنعة دائماً . وواضح ان ابن هشام الذي اقتبس من ابن اسحاق كان ذا افكار عن الملكية اعظم صرامة من ابن اسحاق نفسه . فقد اعترف المقتبس بأنه طرح المكروه من الاخبار ، وكثيراً ما اعتذر عن عدم قدرته على ذكر الاشعار الموجودة في كتاب ابن اسحاق ، لانها غير مناسبة . ويتفق بعض الاخبار التي اوردها مع ما وجد من الواقدي حرفاً بحرف ، ومن المستطاع تفسير بعض الخلافات بينهما بالدوافع التي كانت تسيطر على جامع الاخبار . ويبدو ان قول ياقوت ان محمد ابن اسحاق روى عن الواقدي يتعارض مع تاريخ حياتها ، لأن الواقدي متأخر عنه . واذ افتتح كتاب ابن اسحاق بمجموعة من

التراجم والتواريخ ، وكان من اسس كثير من السير النبوية المتأخرة ، التي لا يستطاع احصاؤها ، كان دين مستقبل الايام له عظيماً جداً . وفي الوقت نفسه على وجه التقريب ، كان مالك بن أنس مشغولاً بموطئه ، وهو المجموعة الاولى من اقوال النبي واعماله التي من الممكن الرجوع اليها لتكملة القرآن : ويروى أن بعض معاصريه اعترضوا عليه لابتداعه مثل هذا الامر ، ولكن يقال ان الخليفة كان يعتبره منفعة عـامة . وعلى الرغم من أن ترجمة ياقوت لابن اسحاق طويلة ، لم يدون ما يشبه هذا الاعتراض في حالته : فالاعتراض ليس موجهاً الى تدوين السيرة ، وانمـا الى الخلود المفروض للمؤلف .

وليس من اليسير الاجـابة عن السؤال ما اذا كان احد من هؤلاء الكتاب او المحدثين الذين اعتمدوا عليهم زيّف التاريخ فعلاً لارضاء شخص او فرقة ما . وكان من المعتاد ان يضع الرواة ، عند روايتهم الاحداث ، الافكار المفترضة للمشتركين فيهـا ، في ألفاظهم الخاصة ، كما قد رأينا : فوضعت المقابلات التي لا بد أنها كانت بطبيعتها سرية وبقيت كذلك ، على هيئة الحوار ، ثم ادعى من جاء بعدهم من المؤرخين أن ما امامهم ليس خيالاً وانما الحقيقة المجردة . وكررت التخمينات القائمة في اغلبها على الاشتقاق اللغوي لا باعتبارها تفسيرات تخمينية ، وانمـا باعتبارها مسجلات مروية . ولعلنا لو اكتشفنا نسخ الجهود الادبية للمدائني ، والهيثم بن عدي ، وابن الكلبي ، وجدنا فيها كثيراً مما ترغمنا قوانين الاحتمال التاريخي على رفضه . ولكن مهما كان الامر فإن الخدمة التي ادوها بتشكيلهم

مجموعات الاخبار المتعلقة بالاحداث الهامة في الخلافة الاسلامية عظيمة جداً . ويشبه عملهم في تمهيد الطريق للتاريخ المطرد عند الطبري عمل فقهاء المدينة في تمهيد الطريق لتشريعات المذاهب المختلفة تمام الشبه . ولما كانت الاحداث لا يمكن تسجيلها الا على يد مشاهديها او المشتركين فيها ، فقد استلزم جمع هذه المادة من مصادر بهذه الكثرة بحثاً واسعاً ، واسفاراً بعيدة في غالب الامر. ولما لم تكن الاحداث مقصورة على مساحة معتدلة كالحجاز مثلًا ، وانما منتشرة فوق بقعة كبيرة تشغل اجزاء من قارتين او ثلاث ، لم يكن من اليسير بلوغ اي مصدر للمعرفة . وعاونت دراسة الحديث النبوي، والتاريخ ، والجغرافيا بعضها بعضاً في تطورها ، اذ لما كانت وسيلة الحصول على المعلومات عن الاولين من هذه الموضوعات الرحلة ، صارت كتب المسالك والممالك عوناً للمحدثين والمؤرخين ايضاً ، وان قصد بها معاونة الحكومة اولاً .

الفصل السادس

مؤرخو القرن الثالث

[الطبري]

القرن الثـــالث في الاسلام من اغنى الحقب بالأدب العربي . فحيثما قلبنــا النظر وجدنا كتباً قيمة تؤلف : كتباً ، صارت بعد موضوعاً للشرح ، او التقليد ، او الاختصار ، او النظر اليهـــا باعتبارها الاثر التقليدي البــاقي . وندين لمحمد بن جرير ابي جعفر الطبري باثنين من اهم الكتب : تفسيره الكبير للقرآن ، الذي يضم جميع ما احتفظت به الاحاديث خاصاً بمحتويات الكتاب المقدس ، وتاريخ الرسل والملوك ، او التاريخ العام ، الذي وصل به الى عام ٢٩٨ . وترجمة ياقوت له من اطول التراجم في كتـــابه ، تشغل اربعين صفحة . وتبتدىء بإبانة العلوم الاربعة التي اشتهر الطبري فيهــا ـــ الحديث ، والفقه ، وقراءة القرآن ، والتاريخ . ومات يوم السبت لاربع بقين من شوال سنة عشر وثلاث مئة ، ودفن يوم الاحد بالغداة في دار برحبة يعقوب ببغداد . وعلى الرغم من انه لم يستعمل الحناء ليخفي شيبه ، كان السواد في شعر رأسه

ولحيته كثيراً ، الى الخامسة والثمانين من عمره : اذ ولد في ٢٢٥ . ولكن بعض العلماء يقول انه دفن ليلاً ، خوفاً من العامة ، لانه كان يتهم بالتشيع ــ شأن كثير من المؤرخين المشهورين . وانكر ذلك الخطيب ، مؤلف تاريخ بغداد الكبير : وقال : اجتمع على جنازته من لا يحصي عددهم الا الله ، وصلي على قبره عدة شهور ، ليلاً ونهاراً ، ورثاه خلق كثير من اهل الدين والأدب . وسنقول فوراً شيئاً عن دراساته : ويذكر بين تلاميذه احمد بن كامل ، الذي تابع مسكويه دراسته التاريخية معه . وقد مكث اربعين سنة ، يكتب في كل يوم منها اربعين ورقة . ويروي راوي ياقوت ان الطبري قال لاصحابه : أتنشطون لتفسير القرآن ؟ قالوا : كم يكون قدره ؟ قال : ثلاثون الف ورقة . فقالوا : هذا مما يفني الاعمار قبل تمامه . فاختصره في نحو ثلاثة آلاف ورقة ، اي العشر . ثم قال : تنشطون لتاريخ العام من آدم الى وقتنا هذا ؟ قالوا : كم قدره ؟ فذكر نحواً مما ذكره في التفسير ، فأجابوه بمثل ذلك ، فقال : انا لله ماتت الهمم . فاختصره في نحو مما اختصر التفسير . ونستطيع ان نتصور الوقت الذي يستغرقه المرء في نسخ كتاب من امثال هذين الكتابين من الحبر الذي ادعى فيه صاحبه انه كتب التفسير كله عن الطبري املاء : فاستغرق ذلك منه ثماني سنوات ، من ٢٨٣ الى ٢٩٠ . ويخبرنا انه فرغ من تصنيف كتاب التاريخ ، ومن عرضه عليه ، في يوم الاربعاء لثلاث بقين من شهر ربيع الآخر ، سنة ثلاث وثلاث مئة ، وقطعه على آخر سنة اثنتين وثلاث مئة .

ويعدد الراوية التالي المذكور مجموعة متنوعة من الكتب الاخرى للطبري ، احدهـا في القراءات ، كتاب جليل في ثماني عشرة مجلدة الا انه كان بخطوط كبار ، واختار قراءة ، وان لم يقرأ عليه الا آحاد من الناس ، ولم يعرف من قرائها غير ثلاثة .

يلي ذلك قصة تتضوع منها رائحة المعجزات . جمعت الرحلة بين محمد بن جرير الطبري ، ومحمد بن اسحاق بن خزيمة ، ومحمد بن نصر المروزي ، ومحمد بن هارون الروياني ، بمصر . فأرملوا وافتقروا ولم يبق عندهم ما يمونهم ، واضر بهم الحال. فاجتمعوا ليلة في منزل كانوا يأوون اليه ، واتفقوا على ان يستهموا ، فمن خرجت عليه القرعة سأل الناس لاصحابه الطعام . فخرجت القرعة على محمد بن اسحاق بن خزيمة ، فقال لاصحابه : امهلوني حتى اتوضأ واصلي صلاة الخِيَرة . فاندفع بالصلاة فـاذا هم بالشموع وخصي من قبل والي مصر يدق عليهم . فأجابوه وفتحوا له الباب فقـال : أيكم محمد بن نصر ؟ فقيل : هذا . واشاروا اليه . فأخرج صرة فيها خمسون ديناراً ودفعها اليه ، وقال : أيكم محمد بن جرير ؟ فأشاروا اليه . فدفع اليه خمسين ديناراً ، ثم قال : أيكم محمد بن هارون ؟ فقيل : هذا . فدفع اليه مثلها ، ثم قال : وايكم محمد بن اسحاق بن خزيمة؟ فقيل : هوذا يصلي. فلما فرغ من صلاته دفع اليه صرة فيها خمسون ديناراً . ثم قال : إن الامير كان قائلًا ، فرأى في النوم خيالاً او طيفاً يقول له : ان المحامد طووا كشحهم . فبعث بهذه الصرر ، وهو يقسم عليكم اذا نفدت ان تبعثوا اليه ليزيدكم .

يلي ذلك بعض اخبار رواها ابن كامل، الذي كان تلميذ الطبري، كما رأينا . جاء الى المؤرخ ، ومعه ابنه الصغير ، في التاسعة من عمره ، فوجد تحت مصلاه كتاب فردوس الحكمة لعلي بن ربن الطبري ، وهو في الطب : فمد الزائر يده لينظره ، ففضل الطبري الا يفعل ، ودفعه الى الجارية . وقال : لمَ لم تسمعه مني شيئاً ؟ قال : كرهنا صغره وقلة ادبه . فقال له : حفظت القرآن ولي سبع سنين ، وصليت بالناس وانا ابن ثماني سنين ، وكتبت الحديث وانا ابن تسع سنين ، ورأى لي ابي في النوم انني بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان معي مخلاة مملوءة حجـارة ، وانا ارمي بين يديه . فقال له المعبّر : انه إن كبر نصح في دينه ، وذبّ عن شريعته ، فحرص ابي على معونتي على طلب العـلم ، وانا حينئذ صبي صغير .

واول ما بدأ دراساته في آمل من طبرستان حيث ولد ، ثم بالري . وكان من اساتذته محمد بن حميد الرازي . « فيخرج الينا في الليل مرات ، ويسألنا عما كتبناه ، ويقرؤه علينا » — ليتأكد من صحته . « وكنا نمضي الى احمد بن حماد الدولابي » وكان في قرية من قرى الري بينها وبين الري قطعة ، ثم نعدو كالمجانين حتى نصير الى ابن حميد فنلحق بمجلسه » : فكتب عن ابن حميد فوق مئة الف حديث ، ومنها ما كان في كتاب محمد بن اسحاق ، وعليه بنى تاريخه . ثم دخل الطبري بغداد ، وكان في نفسه ان يسمع من احمد بن حنبل ، فلم يتفق ذلك لموته قبيل دخوله اليها . ولكن الطبري اقام بالعـاصمة بعض الوقت ، وكتب عن شيوخها ، ثم

انحدر الي البصرة ، مقيماً في واسط بعض الوقت رامياً حضور مجالس علمها . ثم صار الى الكوفة ، فكتب فيها عن أبي كريب محمد بن العلاء الهمذاني ، احد الشيوخ . وعندما رغب الطلبة في حضور مجلسه ، اطلع ابو كريب من كوة في حائط منزله، وقال: أيكم يحفظ ما كتب عني ؟ فالتفت بعضهم الى بعض ، ثم نظروا الى الطبري ، وقالوا : انت تحفظ ما كتبت عنه ؟ قال : نعم . واستطاع ان يجتاز امتحان الشيخ الصارم ، وسمع منه اكثر من مئة الف حديث اخرى. ثم عاد الي بغداد ، وتفقه بها ، واخذ في علوم القرآن : ثم غرّب ، وكتب في طريقه من المشايخ بأجناد الشام ، ثم صار الى الفسطاط ، في سنة ثلاث وخمسين ومئتين . وكان اكرم العلماء بالفسطاط علي بن سراج ، الذي وجد الطبري فاضلاً بارعاً لا في العلوم الدينية وحدها ، بل في الشعر ايضاً . واستطاع ان ينشد ديوان الطرماح ، وكان من يقوم به مفقوداً في البلد ، وان يمليه بغريبه . وبرز في الفسطاط مؤسساً لمذهب من مذاهب الفقهاء ، وكان ابتدأ على مذهب الشافعي : ولقي بعض الاتباع ، شأن غيره من الفقهاء ، اذ لم تعتبر المذاهب الاربعة المذاهب الصحيحة وينفى غيرها الا في اواخر القرن الرابع .

ويدون ابن كامل قصة سمعها من الطبري ، متعلقة بتجاربه عند وصوله الى الفسطاط ، وتبين اختلاف اللهجات بين الاقطار التي تتكلم العربية . فقد حصل له بعض من اتخذهم من اصدقاء على دار ، وذكروا له مجموعة من الاشياء التي هو محتاج اليها : فكانت

جميع الالفاظ التي استعملوها غير مألوفة منه بمعانيها المصرية . اخبر انه محتاج الى حمارين : فقال : واما الحماران فان ابي وهب لي بضاعة انا استعين بها في طلب العلم : فان صرفتها في ثمن حمارين ، فبأي شيء اطلب العلم ؟ ولكن الحماران كانا اربع خشبات قد شدوا وسطها بشريط ، لينام عليها من البراغيث ، وكذلك كانت الاشياء الاخرى تعادل الحمارين رخصاً وعدم قدرة على الاستغناء عنها .

وتبين قصة اخرى تروى عن مسلكه في الفسطاط بعض الافتقار الى الصراحة . فقد كان محاطاً برجال من جميع الانواع ، يمتحنونه في الفروع المختلفة من المعرفة التي اشتهر بها . فجاءه يوماً رجل فسأله عن شيء من العروض . ولم يكن الطبري نشط له قبل ذلك ، ولكنه كره ان يعلن جهله به . فطلب الى السائل ان يمهله يوماً ، وفي الوقت نفسه اقترض مقالة الخليل بن احمد ، مبتكر هذا العلم . وعندما كرر السائل زيارته ، كان الطبري قد صار «عروضياً» .

ويبين خبر مروي عرضاً في حياة رجل آخر ان الطبري لم يكن دائماً كفوءاً للشهرة التي حظي بها من حيث انه يحفظ ذخائر كثيرة من العلم . ذلك الرجل هو القاضي ابو جعفر التنوخي المعروف بابن بهلول ، والمتوفي عام ٣١٨ ، وكان احد القضاة الذين رجع اليهم بشأن زندقة الحلاج . فقد قابل الطبري في جنازة في بغداد ، دون ان يعرفه : فاشتبكا في حوار وكشفا كلاهما عن معرفة كبيرة بالأدب . وعندما عرف القاضي اسم محدثه ، الذي

كان مشهوراً – لا بالكتابة ، فيما يبدو ، بل بقوة الحفظ والاتساع في صنوف العلم – اسف ان لم تأخذ المذاكرة مجرى آخر : وبعد مدة تقابلا في مناسبة اخرى ، فانتهز القاضي الفرصة لاختبار الطبري . فكلما ذكرت قصيدة ، وطلب الى المؤرخ ان ينشدها كاملة : حذف منها ابياتاً كثيرة وتلعثم كثيراً : ولكن ابن بهلول استطاع في كل مرة ان يملأ الثغرات ، فبان للحاضرين تقصير الطبري ، وسر ابن بهلول للنتيجة .

وعاد من الفسطاط الى بغداد ، ومنها الى موطنه طبرستان ، التي زارها ثانية عام ٢٩٠ . وعند عودته الى بغداد بعد اولى هاتين الزيارتين اشتبك في نزاع مع الحنابلة ، بسبب كلمة بدرت منه في حق إمامهم اعتبروها إهـانة له . فرمي بالمحابر ، وحصب داره بالحجارة ، حتى صار على بابه كالتل العظيم ، ثم رفعها الجند ، الذين كان على رأسهم نازوك ، الذي نعرفه من مسكويه . وعمل كتابا في الاعتذار اليهم ، مدح فيه احمد بن حنبل ، ولم يخرج كتابه الذي ناقش فيه آراء ذلك الرجل حتى مات . وليس من الواضح ، كما قد رأينا ، انه نجح في مهـادنة الحنابلة ، الذين كانوا عنصر فزع في بغداد .

وكانت براعته في النحو كافية لتكسب له إطراء ثعلب ، الذي كان الطبري قد حضر مجـالسه قبل ان يشتهر ، وعرف عن ثعلب انه كان قليل الشهادة لاحد بالحذق في علمه .

ويروى من مميزات الطبري انه كان يكره تفضيل احد تلاميذه

على سائرهم : فلو لم يستطع طالب الحضور ذات يوم ، اجّل الطبري مجلسه الى ان يستطيع الحضور .

ويبدو ان الطبري اشترى الكتب ايضاً ، بالاضافة الى رحلاته في كثير من الاقطار لتحصيل العلم رواية . يروي وراق ان الطبري التمس منه ، اذ عزم على تأليف رسالة في القياس ، ان يجمع له ما امكنه من الكتب فيه . فجمع له الوراق نيفاً وثلاثين كتاباً . فأقامت عنده مديدة ، ثم ردها وفيها علامات بحمرة .

ويخصص ياقوت بعض الصفحات لآراء الطبري الدينية، وكان شديداً متمسكاً بالسنن ، وان لم يكن من اليسير التوفيق بين بعضها وآراء السنة المتأخرين من بعض الوجوه . وكفر الخوارج والروافض ، اي من لا يستطاع قبول ادلتهم . وتمسك بأن لا وراثة بين افراد المذاهب المختلفة في الدين الواحد ، سواء اكانوا مسلمين ، ام يهودا ، ام مسيحيين . وعند وفاته غفر لكل من عاداه ، الا رجلا رماه ببدعة — وكان يعتبرها اهانة لا تغتفر . وتشدد في تمسكه بصحة الحديث الذي تبني عليه الشيعة حق علي في الخلافة ، ولكنه كان شديد الاعجاب ايضاً بالخلفاء الثلاثة الاولين . وقد اضطر الى مغادرة طبرستان بعد زيارته الاخيرة ، لان الرفض ظهر بها ، وخاف ان يجري عليه ما يكرهه بسبب آرائه . وقد وجه سلطان البلدة اليه من يأتي بـــه ، ولكن صديقاً اخبره في الوقت المناسب فهرب : ولكن الصديق حصل في ايديهم وجلد .

ويقال انه كان ذا كبرياء تمنعه من اخذ هدية لا يمكنه المكافأة.

عليها . ووجه اليه ابو الهيجاء بن حمدان ، الذي اضطلع بدور من ادوار البطولة عندما خلع المقتدر واقيم القاهر مقامه ، ثلاثة آلاف دينار : فردها بدعوى انه لا يقدر على المكافأة عنها . وفي مناسبة اخرى عندما وجه اليه الوزير هدية من المال ، ويسأله ان لم يقبلها ان يفرقها في اصحابه ممن يستحق، امتنع الطبري من قبول الدراهم قائلًا : هو اعرف بالناس إذا اراد ذلك . ومن جهة اخرى بعث هو نفسه هدايا الى الوزير عندما قدم الحاج ، وجلبوا معهم مال ضيعته في طبرستان .

وكانت الكتب التي يفضلها المؤرخ ويجتهد بأصحابه ان يأخذوها ، لا التفسير ولا التاريخ ، وإنما كتبه الفقهية : « الاختلاف » ، وهو اول ما صنف ، وكان في نحو ثلاثة آلاف ورقة ؛ و « تهذيب الآثار » ، في الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الاخبار ؛ ومقالة فقهية تسمى « البسيط » . وعند وفاته كان مشتغلًا بمقالة كبيرة في الادب ، شبيهة في خطتها بإحياء العلوم الذي اخرجه بعد الغزالي .

ويصف ابن كامل، الذي كان تلميذ الطبري، كما قد رأينا ، مظهره الشخصي وعاداته ، وكان شديد العناية بنظافته : ويخبرنا ايضاً كيف قسم الطبري يومه : فكان يكتب من الظهر الى العصر كان يجلس للناس يقرىء ويقرأ عليه الى المغرب. ثم يجلس للفقه والدرس بين يديه الى عشاء الآخرة . ثم يدخل منزله .

كذلك يوجد جانب اخف من شخصيته ، وتروى بعض الاخبار التي تمثل فصاحته وفكاهته .

وقد اشتبك في خصومة قوية مع رجل ، هو داود بن علي الاصفهاني ، مؤسس المذهب الظاهري : خصومة اتسمت مراراً بالخشونة. وجدير بالملاحظة ان مذهب هذا الرجل قُدّر له ان ينال من الانتشار ما لم تنله آراء الطبري البتة .

ولعل حكم الاجيال التي تلت على آثاره كان مفضلاً لتفسيره وتاريخه، ويبدو أنها كليهما صورة امينة للمادة التي جمعها في رحلاته. وواضح ان ملكاته الادبية حرمته بعض خصائص المؤرخين : ولذلك كان حين اضطر الى تناول شئون عصره معيباً ، ولم يعط صورة واضحة عن تطور الاحداث ، وحذف تفاصيل هامة، ولذلك ظهر القديرون من وزراء عهده وخلفائه في صورة الظلال المعتمة . ونفعه اكثر جداً عندما يكون امامه مادة هيئها له السابقون . وإننا لنشك فيما اذا كان قادراً حقاً على تأليف تاريخ يبلغ عشرة اضعاف تاريخه الموجود ، فالمحتمل اذن ان من الواجب علينا رفض تلك القصة واعتبارها خرافة لا اساس لها .

واذ كان الغربيون يهتمون اشد الاهتمام بالتوسع الاسلامي عن طريق الفتوح ، فان تلك النقطة ليست بارزة عند الطبري للاسف. والمؤرخ الذي يتخذ من الحروب الاجنبية موضوعاً له ، مضطر الى معرفة بعض الامور عن الجانب الآخر : حالة الامة، واسماء قوادها وسياسييها واعمالهم وما شابه ذلك . ويجب الا

يكون القيام بمثل هذا البحث خارجاً عن نطاق الطبري ، الذي ربما كان عاونه كثيراً على فهم التقدم الاسلامي في فرنسا وتوقفه بانتصار شارل مارتل. ويظهر في اواخر القرن الرابع مؤلف عانى كثيراً في مثل هذا البحث ، وهو ابو الريحان البيروني ، ولكنه مؤلف وحيد . ولا شك ان الشيوخ الذين اخذ الطبري عنهم ، والكتب التي حصل عليها ، كانت اكثر عناية بالامور الداخلية منها بالشئون الاجنبية .

كان عمل عظماء المحدثين المعاصرين للطبري يقوم على اختيار الصحيح من الاحاديث الكثيرة الشائعة حينئذ . وقد اختلفت « شروطهم » ، ولكنهم اجمعوا على تصديق عدد متوسط منها ، والرجوع اليه في التشريع . ولعلنا نذهب الى ان الطبري قام في التاريخ بعمل مشابه لما قام به البخاري ومسلم في الحديث : اختيار المادة التاريخية الصحيحة من مجموعة المادة التي تقدمها كتب المدائني وغيره : وأتبع ذلك عملاً شاقاً وخطراً الى حد ما، هو الاستمرار بالتدوين الى عصره .

وعلى الرغم من ضخامة تاريخ الطبري نجد انه نقله بعد موته الرواة ، كأنما هو رواية شفوية. فقد نقله الى مسكويه ابن كامل : وروى من يسمى احمد بن عبدالله الفرغاني ٣٢٧ – ٣٩٨ ، وكان ابوه صديقاً للطبري ، التاريخ والتفسير ، عن ابيه . والف الاخير تاريخاً خاصاً به ، اكمله هذا الابن .

[ابو حنيفة الدينوري]

واشتهر معاصر للطبري في التاريخ وعلوم اخرى ايضاً ، هو احمد بن داود ابو حنيفة الدينوري . ويوجد بعض الشك في تاريخ وفاته ، اذ تختلف الروايات بين عامي ٢٨٢ و٢٩٠ . واشهر كتاب له في النبات : ولكنه اشتهر بالبلاغة ايضاً ، وتروى مناقشة وقعت في مجلس ابي سعيد السيرافي النحوي بصدد تفضيل بلاغة ابي حنيفة والجاحظ البصري العظيم . وحاول ابو سعيد ان يختم النقاش، بأن جعل ابا حنيفة ادخل في اساليب العرب، والجاحظ ذا معاني لاصقة بالنفس . واعلن ابو حيان التوحيدي ، راوي هده المناقشة ، انه يضع ثلاثة من الكتاب فوق جميع من كتب: هم الجاحظ البصري، وابو زيد البلخي ، وابو حنيفه الدينوري . ويقول عن الاخير : « جمع بين حكمة الفلاسفة وبيـــان العرب ، له في كل فن ساق وقدم ، ورواء وحكم ؛ وهذا كلامه في الانواء ، يدل على حظ وافر من علم النجوم ، واسرار الفلك . فأما كتابه في النبـــات فكلامه فيه ، في عروض كلام آبدي بدوي ، وعلى طباع افصح عربي . ولقد قيل لي : ان له في القرآن كتاباً ، يبلغ ثلاثة عشر مجلداً » . وقد اثار انتباه الموفق ، اخي المعتمد ، فرعاه . وكان لغوياً كبيراً ايضاً : ويروى خبر عن ورود المبرد الدينور، حيث سأله مضيفه عيسى بن ماهان عن معنى كلمة غريبة في الحديث . واذ كان المبرد غير متأهب للسؤال، ارتجل معنى للكلمة ، وعندما سئل عن شاهد عليها ، انتحل بيتاً من الرجز : ثم اعلن حضور

ابي حنيفة وقدم له السؤال . فأكد أن شاهد المبرد منتحل ، وان للكلمة معنى يختلف كل الاختلاف عما قال المبرد . واضطر المبرد الى الاعتراف بإصابة ابي حنيفة ، واعتذر بأنه أنف ان يرد من العراق ، وذكره ما قد شاع ، ولا يعرف اول ما يسأل عنه .

وثبت كتبه الذي يرويه ياقوت عن الفهرست متنوع اشد التنوع : إذ تمثل فيه الجغرافية ، والنبات ، والرياضة ، واللغة ، والتاريخ الادبي ، كما يتمثل التاريخ الفعلي . وقد نشر مجلد يدعي أنه كتابه في الاخبار الطوال ، ويضم تخطيطاً للتاريخ العام الى عهد المعتصم . ويختلف عن الطبري في حذفه «الاسانيد» : فيطرد السرد ، مع إقحامه كثيراً من الاشعار .

واينا ذكر المؤلف رواة ، كانوا الكلبي والهيثم بن عدي . ويسرد التاريخ، كما قد رأينا ، باسلوب الروائي ، فيورد الاحاديث الخاصة مطولة ويجعل الاحزاب تتبادل الاشعار : بل تنظم الرسائل شعراً ، في الحقبة الحرجة عندما كان نصر بن سيار يحاول تحذير مروان الثاني من الخطر الذي يهدده من خراسان . ولا يبين عن كبير مقدرة على النقد : يروى (كما قد رأينا) ان من يسمى الكرماني بعث الى عمر بن ابراهيم ، من ابناء أبرهة بن الصباح آخر ملوك حمير ، يسأله نسخة من المعاهدة التي تمت في الجاهلية بين اليمن وربيعة : فأجاب سؤاله ، وارسل اليه نسخة من المعاهدة يوردها المؤلف برمتها . وهي مدونة بالعربية القصحى ، مسجوعة ، وتستهل بعبارة دالة على التوحيد . ولدينا في نقوش مأرب نص

من أبرهة هذا ، وهو مدون باللغة السبئية : ولكن الدينوري لم يخامره اي شك .

وانما اختلف هذا المؤلف مع الطبري ، فالمحتمل وجوب تفضيل رواية الطبري عادة . ويجدر بنا ملاحظة انه عندما روى قيام العباسيين لم يشر الى تنازل محمد بن الحنفية المفترَض ، الذي رأينا لاسباب اخرى انه غير صحيح . وبرغم ذلك لا يمكن أن تقوم مقارنة حقة بين كتابه وكتاب الطبري : فمن الواضح ان التاريخ العام الذي لا يشغل غير ٤٠٠ صفحة يقوم على مقياس يختلف كل الاختلاف عن مقياس الكتاب الضخم للرجل الآخر . ويبدو ان القول بأن هذا الكتاب ليس كتاب الاخبار الطوال الوارد في ثبت الدينوري له وجاهته : إذ لا يتفق العنوان مع المحتويات .

[احمد بن ابي طاهر طيفور]

وعاصر الطبري ايضاً احمد بن ابي طاهر ، المتوفي عام ٢٨٠ ، والذي رأى الضوء مجلد واحد يعالج عصر المأمون من كتابه الكبير في تاريخ بغداد : خلفائها وامرائها ، وايامهم . وقد اتهم بالسرقة من هذا المؤلف ، ولكن من المتعذر اثبات ذلك .

ويسمى ابو هذا الرجل طيفور ، وكان من مرورروذ . ويقال انه كان يروي عن عمر بن شبة ، الراوية المشهور . وكان في مستهل حياته مؤدب كتّاب . ويؤكد المؤلف الذي ينقل عنه ياقوت انه لم ير ممن شهر بمثل ما شهر به من التصنيف للكتب وقول

الشعر اكثر تصحيفاً منه ، ولا أبلد علماً ، ولا ألحن : واشتهر ايضاً بسرقة اجزاء من شعر غيره . ويروى خبر لطيف عن حيلة احتال بها هو وصديق للحصول على مساعدة في وقت اشتدت بهما الازمة فيه . إذ تظاهر ابن ابي طاهر بالموت ومضى صديقه الى رجل عظيم يطلب مساعدته في دفنه . فأتى العظيم ليرى الجثة ثم نقر أنفها: فضرط ابن ابي طاهر ، وفسر صديقه الامر بأن هذه بقية من روحه كرهت نكهته فخرجت من استه . ويبدو انه عاش على المدائح : ويدون خبر وهب فيه ١٠٠ دينار لمدحه الوزير الحسن بن مخلد ، الذي يروي عنه التنوخي بعض الاخبار الغريبة . فأرجأ صاحب خزانة الوزير ، وكان اسمه رجاء ، المكافأة ، مدعياً انه لم يؤمر بشيء . فكتب ابن ابي طاهر بعض ابيات يحث الوزير فيها ان يبادر بالجود ما دام مقتدراً ، فليس في كل حال هو مقتدر : فضاعف له المكافأة . وثبت كتبه التالي عظيم الطول ، واغلبه تراجم شعراء ومختارات من دواوينهم : ويوجد ايضاً بعض المقالات السياسية ، ويبدو ان بعضها كان على هيئة الروايات التاريخية ، ذلك اللون الذي ابتدأه اكسينوفون Xenophon في Cyrupaedia . ويصل احد الاخبار بينه وبين المبرد ، الذي هجاه ، وهاجمه في عنف .

ولا تلقي بقية الاخبار في ترجمة ياقوت لهذا الرجل اية اضواء على الوان نشاطه الادبي . وتتألف من قطع من اهاجيه للوزراء وغيرهم من مشهوري عصره ، وكل ما نستطيع استنتاجه أنه تسلم مرتباً ما من خزانة الحكومة . وقد شكا الى احد الوزراء عندما

تأخر هذا المرتب ، وذكر ان مثل هذه الشكوى تكشف عن افتقاره الى الكرامة الشخصية ؛ ووعده اسماعيل بن بلبل ، الذي سمعنا عنه ، المساعدة، ولكنه لم يمنحه اياها فعلاً . ولم يأذن له وزير آخر بالدخول ، وواضح ان مرتبه لم يكن من اجل الابحاث التاريخية ، وانما من اجل شعره ، الذي لم يبق منه غير قطع ذكرها من ترجم له .

[البلاذري]

ونال مؤرخ آخر في هذا القرن شهرة مستفيضة بحق ، وهو احمد بن يحيي البلاذري ، المتوفي عام ٢٧٩ . وكان رجل بلاط ، يقتبس من المعلومات ما يمنحه الخليفة المتوكل ، وعينه المعتز مربياً لابنه عبدالله .

وقد اكثر من الرحلة وابعد بحثاً وراء المعرفة ، وزار عدة مدن من الشام ، ومن شيوخه في بغداد اربعة مشهورون، هم ابن ابي شيبة ، والقاسم بن سلام ابو عبيد ، مؤلف غريب الحديث ، والمدائني ، ومحمد بن سعد كاتب الواقدي .

ويقال انه منسوب الى البلاذر ، وهو ثمر شربه جده ، فسبب له الوسوسة . واحترف الى جانب ابحاثه في التاريخ فن الهجاء ، وصبه دون شفقة : على الاشراف . ويروي ياقوت خبراً ذا اهمية نقلاً عن البلاذري نفسه . لما امر المتوكل ابراهيم بن العباس الصولي، ان يكتب فيما كان امر به من تأخير الخراج ، حتى يقع في الخامس من حزيران ، ويقع استفتاح الخراج فيه ، كتب في ذلك كتابه

المعروف ، واحسن فيه غاية الاحسان. فدخل عبيدالله بن يحيي على المتوكل فعرفه حضور ابراهيم بن العباس، واحضاره الكتاب معه. فامر بالاذن له فدخل . وامره بقراءة الكتاب فقرأه ، واستحسنه عبيدالله بن يحيي ، وكل من حضر . قال البلاذري : فدخلني حسد له ، فقلت : فيه خطأ . فقال المتوكل: في هذا الكتاب الذي قرأه عليّ ابراهيم خطأ ؟ قلت : نعم . قال : يا عبيد الله ، وقفت على ذلك ؟ قال : لا ، والله يا امير المؤمنين ، ما وقفت فيه على خطأ. فأقبل ابراهيم بن العباس على الكتاب يتدبره ، فلم ير فيه شيئاً . فقال : يا امير المؤمنين ، الخطأ لا يعرى منه الناس ، وتدبرت الكتاب خوفاً من ان اكون قد اغفلت شيئاً وقف عليه احمد بن يحيي ، فلم ار ما انكره ، فليعرفنا موضع الخطأ . فقال المتوكل : قل لنا ما هو هذا الخطأ الذي وقفت عليه فيهذا الكتاب؟ فقلت: هو شيء لا يعرفه إلا علي بن يحيي المنجم، ومحمد بن موسى ، وذلك انه أرخ الشهر الرومي بالليالي ، وايام الروم قبل لياليها ، فهي لا تؤرخ بالليالي، وانما يؤرخ بالليالي الاشهر العربية ، لأن لياليها قبل ايامها بسبب الاهلة . فقال ابراهيم : يا امير المؤمنين ، هذا ما لا علم لي به ، ولا ادعي فيه ما يدعى . قال : فغيّر تاريخه .

وبين ايدينا كتابان له فيالتاريخ . اما «فتوح البلدان» فسجل للفتوح الاسلامية ، ويورد كل فصل منه عادة بعض تفاصيل تاريخ البلد المفتوح بعد فتحه . ويخبرنا ان التفاصيل مجموعة غالباً منعلماء كل اقليم : فقد زار الاماكن وتعرف على الافكار الشائعة فيها ،

المتعلقة باسم الفاتح ، وطريقة الفتح ، وما تلاه من احداث هامة . وتضم هذه التفاصيل غالباً توزيع الاقاليم على القبائل ، وانتقال السكان من مكان الى آخر ، وإنشاء الآثار العامة او المرافق واتمامها ، ومصدر الاسماء الخاصة والامور الاخرى التي كان تخليدها هاماً . واستخدم ، بالاضافة الى حصوله على هذه المعلومات المحلية ، التي كانت جديرة بالثقة الى مدى بعيد ولا شك ، استخدم آثار البحاثة السابقين ، كالواقدي عن طريق محمد بن سعد ، كاتبه ومؤلف الطبقات . وواضح ان بعض الشك يحوم احياناً حول مسائل لها اهميتها ، وأن قدراً لا بأس به من الخطأ وقع في التواريخ ، نتيجة الاعتماد على الرواية الشفهية . وبرغم ذلك يجب الاعتراف بأن قدر هذه المآخذ اقل مما كنا نتوقع . واينما روى البلاذري روايات متعارضة عن الحوادث الواحدة ، كما هي الحال غالباً ، لم يكن الاختلاف كبيراً عادة . وينطبق ذلك على المواضع التي يورد فيها روايات مختلفة من المعاهدة الواحدة . فالمعاني واحدة على وجه التقريب ، وان اختلفت العبارة ، وترتيب الجمل وبعض التفاصيل احياناً نتيجة لنزوات ذاكرة الرواة .

وذهب آلورد Ahlwardt ، الى ان مخطوطاً في برلين ، هو المجلد الحادي عشر ، من كتاب آخر لهذا المؤلف ، وكان ٤٠ مجلداً في الاصل ، ويقال انه توجد مجلدات اخرى منه في القسطنطينية . وليس هذا الكتاب ، وهو «انساب الاشراف» ، تاريخاً مطرداً ، وانما مجموعة من الروايات التي تعالج احداثاً خاصة : ويجب ان

نستبدل كلمة «فتوح» في الكتاب الآخر بكلمة «أمور» ، إذ أنها واردة في عناوين المخطوطات . واغلب مادة المجلد الحادي عشر الحروب بين عبدالله بن الزبير وعبدالملك ، والحروب بين خوارج ذلك العصر وخصوم الخلفاء . وقد دون المبرد في كامله ، وهو كتاب لغوي اكثر منه تاريخي ، قدراً طيباً من المادة نفسها .
ويجمع البلاذري في هذا المقال الروايات التي شكلها عوانة ، والهيثم ، والكلبي ، وغيرهم : ويذكر الاشعار المتصلة بالمناسبات كثيراً جداً ، ويعترف او يلاحظ احياناً ان نسبة الاشعار الى اصحابها خاطئة ، او انها تشير الى مناسبة اخرى . وقد اعتنى بتأريخ الحوادث ، ولكنه لا يوجد ترتيب مطرد نتيجة لطبيعة منهجه : إذ يرغمه تقسيم التاريخ الى احداث منفصلة الى الرجوع والتقدم في الزمن . واهمية الكتاب تقوم على إبانته المرحلة الوسطى بين الرواية المنفصلة عند المدائني والتاريخ المطرد الذي نجد مثالاً له عند الطبري . ويجمع البلاذري الاحداث الواقعة في حقبة واحدة معاً ، ولكنه لا يزال يعالجها كأنها وحدات . اما في كتاب الطبري فقد اتصلت بالمجرى الرئيسي . وتفقد في حقبة متأخرة ماهيتها تماماً .

[ابن قتيبة]

ووصل الينا كثير من كتب مؤلف من هذه الحقبة ، هو عبدالله بن مسلم بن قتيبة ، التي استمرت حياته من ٢١٣—٢٧٠ . وكان قاضي الدينور ، ويعرف عادة بابن قتيبة . واشهر كتبه

« ادب الكاتب » ، الذي شرحه كثيرون ، وهو رسالة ليرجع اليها كتاب الدواوين . وهي احدى ثلاث رسائل تقليدية في الفن المسمى بالأدب ، اما الاخريان فبيان الجاحظ وكامل المبرد . ومادتها البراعة النحوية واللغوية : وقد صار الكاتب بعد بضعة قرون في حاجة الى معلومات متسعة متنوعة وضمت الرسالة المؤلفة ليرجع اليها عدة مجلدات .

ويسمى احد كتب ابن قتيبة التاريخية «المعارف» ، وهو موجز من المعلومات التاريخية التي تتألف في غالبها من القوائم ، والحقائق المتصلة بالنبي ، وجداول الانساب ، واسماء الفرق وما الى ذلك . وفائدة الكتاب لا ينازع فيها ، ولكن قلما يستطاع تسميته تاريخاً . ويختلف كتاب آخر يعزى اليه عن الكتاب السابق كل الاختلاف في ظواهره . ذلك هو كتاب « الامامة والسياسة » ، وهو تاريخ للدولة الاسلامية منذ وفاة النبي الى وفاة هارون الرشيد . وبالرغم من ذلك فتزييفه التاريخ او جهله به من الوضوح بحيث لا يمكن ان يكون لابن قتيبة . فهو يجعل من السفاح والخليفة العباسي الاول ابا العباس شخصين مختلفين : ويفترض ان هارون الرشيد الخلف المباشر للمهدي ، الذي يقول ان ابن عبدالله دس له السم . ولا يعرف له ابن بهذا الاسم . ويبدو ان المؤلف يكشف عن عناية خاصة بشئون اسبانيا ، التي لا يعرف عنها اكثر مما يعرف الكتاب الشرقيون عادة ، وانه من اتباع الامام مالك الذي يصوره منتصراً على اتباع ابي حنيفة في احدى

المناقشات . فلعله اذن قصاص اسباني . ولما كانت وفاة هارون الرشيد لا تعلم حقبة في التاريخ الاسلامي ، فان انتهاء كتابه بها ربما افاد دليلاً على تاريخه. ويبدو انه لا يشير الى اي حادث بعدها: والطريقة التي يعالج بها ايام هارون وقصة بني برمك لا تختلف عن طريقة الطبري : وواضح ان هالة الروائية احاطت بهذه العائلة بعد نكبتها بوقت قصير تماماً : بل وقع ذلك في منتصف القرن الثالث. فلعلنا اذن لا نبعد كثيراً عن الصواب حين نعد هذا الكتاب من نتاج القرن الثالث .

وهذا الكتاب من اعظم التواريخ العربية جاذبية في سهولة الاسلوب وجماله : بل ان مؤلفه اكثر من ابي حنيفة اصطباغاً بالصبغة الروائية ، ويدعي ايراد الرسائل المتبادلة بين المشهورين الذين يروي اخبارهم، وايراد خطبهم ومحادثاتهم. وقلما يحلي رواياته بالاستشهاد بالشعر ولعله كان يرى أن نهجه في جعل القصة جذابة اكثر احتمالاً للنجاح. وهو متعصب لعلي شأن كثير من المؤرخين، قليل العطف على معاوية وخلفائه او الاعجاب بهم : والحق ان علينا ان نرجع الى فتوح البلاذري لنقدر خدماتهم للاسلام : اذ يمر الطبري وغيره على جهود الخلفاء في التنظيم والادارة دون كبير عناية . ومن اليسير ان نعتذر لكتاب الامامة عن هذا الامر ، اذ واضح ان موضوعه ليس التوسع الاسلامي ولا التنظيم الداخلي وانما الطريقة التي حصل بها على الامامة او طولب بها : واذ كانت الاحداث التالية لمقتل عثمان ذات الاهمية المطلقة في تقرير هذا

الامر ، فالمؤلف على حق حين يعالجها في اطناب ينفي جميع الالوان الاخرى من التاريخ. والاستثناء الرئيسي الذي عقده هذا المؤلف هو استثناء غزو المغرب واسبانيـا ، اللتين فتحتا في ايام ابناء عبد الملك ، وكان بطل الغزو موسى بن نصير ، الذي لقيت خدماته كفراناً ونكراناً عظيمين من الخليفة سليمان . وتتمثل في الكتاب بعض المواد الخرافية التي تقابلنا في التواريخ المتأخرة لهذه الفتوح، وإن بدا انه يلتزم الحقائق في هذه الاحداث . وقلما يذكر الرواة الذين استقى منهم اقواله : وجدير بالملاحظة انه يقتبس من الهيثم بن عدي قائلاً « وذكروا ان الهيثم بن عدي اخبرهم » ، مما يوحي بأن المؤلف عرف آثار هذا الجماعة عن طريق الرواية الشفوية لا النسخ. وحين يورد رسائل تكون عبارته «ذكروا» ان الرسالة التالية بعثها شخص الى آخر ، و«ذكروا» ان الاخير ارسل الجواب التالي . ونجد ، كما قد رأينا ، كتاباً آخرين يوردون الرسائل المدونة في بعض هذه المناسبات ، ولا تتفق هذه الرسائل إلا الى المدى الذي توجبه الظروف التي يقال انها دونت فيها. وتحيي مثل هذه الوثائق، والخطب ، والمحادثات، كما هي واردة عندهم ، التاريخ وتجعله حياً ولكنها بطبيعة الحال ليست مصدراً للمعرفة . وهناك بعض الحقائق المستفيضة الشهرة وذات الاهمية الكبرى التي لا تزعزع : الاضطرابات التي واجهت علياً حين بويع خليفة ، وأدت الى ظهور قوة الامويين : انتقال مركز الحكومة من المدينة الى العراق والى دمشق : ربما قلنا ان كل انسان عرف ان النبي هاجر الى المدينة واتخذها عاصمة لامبراطورية يرغب في معرفة كيف نقلت عـــاصمة الاسلام الى

موضع آخر ، وكيف استطاعت الاسرة التي ناصبت محمداً اشد العداء ان تتوارث خلافته . ويستطيع راوي هذه الاحداث، اذا شاء ، ان يجيبها بجعل الفرق تتحدث وتتراسل اذا ما كانت متباعدة: ولكن المحادثات والرسائل كانت مستنبطة من الحقائق، لا العكس. ولما كان المؤرخون المختلفون يعزون الوثيقة الواحدة الى رجال مختلفين، كما قد رأينا ، فمن المحتمل ان الاشخاص الثانويين ، الذين يظهرون في تلك الاخبار سعاة ، او اصدقاء يستشارون ، او موظفين في مراكز ثانوية ، انما ذكروا في اغلب الاحيان تخميناً ، وان وجدت احياناً لدى الاسر القديمة اخبار مأثورة بأن احد الاجداد اشترك في احد هذه الاحداث الهامة .

وقد عصر المؤلف خياله في ايراد المجادلات الطويلة التي يشترك فيها كثيرون ، كما حدث عندما اقترح معاوية اعلان يزيد خليفة بعده وطلب البيعة له . فهناك مجموعة كاملة من الخطب ، معظمها في جانبه ، وبعضها يعارض الاقتراح : ثم ذهب معاوية الى المدينة ليعلن اقتراحه فيها وتكررت محادثاته مع الزعماء . اذ يزور عائشة، التي كان خطابها له من الفصاحة بحيث خاف ان يجيبها كيلا يكشف عن ضعف موقفه .

وان كان الكتاب الذي امامنا كله من قلم واحد ، لم يكن من المستطاع تبرئة المؤلف من تهمة الاهمال . فهو يذكر في ختام المجلد الاول وصفاً مطولاً لواقعة الحرة ، رفض اهل المدينة مبايعة يزيد بعد موت معاوية ، وارسال مسلم بن عقبة لاخضاعها ، مع

مختارات من الفظائع التي ارتكبت في الايام الثلاثة التي استبيحت المدينة فيها . ولكننا حين ننتقل الى المجلد الثاني نجد المؤلف فيما يبدو قد نسي كل هذه القصة المخيفة الطويلة ، ويورد تخطيطاً آخر للاحـــداث نفسها دون أية اشارة الى انه روى هذه الاخبـار كلهـــا قبل . ولا يدهشنا مثل هذا العمل كثيراً في الحالات التي ينقل فيها مؤلف فقرات من مؤلف سابق، دون ان يعير محتوياتها كبير عناية : ولكنها مذهلة فيما هو مقصود به ان يكون اثراً فنياً قصداً واضحاً .

وعلى الرغم من توقعنا ان مؤرخاً يكتب في ظل العباسيين كابن قتيبة الحقيقي يتعصب على الامويين ولا يكثر من الاشـادة بهم ، فإن هذا المؤلف لا يمكن اتهامه بالهوى المفرط من هذا الجانب . بـــل هو شديد الاعجاب بأميرين امويين ، عمر بن عبد العزيز ، الذي يستثنيه حتى مؤلفو الشيعة مما يرمي بـه الامويون عامة ، اذ كان زاهـداً ومعجباً بعلي ، ويروي المؤلف عنه بعض المعجزات الساذجة . ولكنه اشد حماسة في مدحه هشام بن عبد الملك، الذي يعتبر ايامه اوج الخلافة : فقد جبى الخراج من جميـع انحاء العالم ، واوجد حقبة من الامن والرخاء لم يعرف مثلها من قبل ، بهدوئه وصرامته في الحق ، واستعداده الاصغاء الى المطـالب ، والتنظيم الدقيق الذي جعله عارفاً بكل ما يدور في جميع ارجاء الخلافة . وكان هذان الامامان وفقاً لقول المؤلف شديدي الاختلاف في الشخصية على الرغم من نجاحهما حكاماً : فكان عمر من الحرص على

استعمال الاموال العامة بحيث جعل افراد عائلته تلبس المرقعات ؛ وكان هشام من الاسراف بحيث لم يترك في خزانته بعد موته ما يغطي نفقات جنازته . وسواء كانت الصور التي يرسمها المؤلف صادقة او كاذبة ، فإن اوصافه للخلفاء المستقلين تترك تأثيراً واضحاً وحياً ، لا يمكن الحصول على مثله من رواية الطبري الجافة .

[اليعقوبي]

اما الكاتب المعروف باليعقوبي ، احمد بن اسحاق بن جعفر ، فمؤرخ على نطاق ضيق ، ولكن اعظم جداً كثيرا . وليس لدى ياقوت غير اسطر قلائل عنه ، ذكر فيها ملاحظة وردت في كتاب تاريخي لمحمد بن يوسف الكندي ، نصت على انه توفي عام ٢٨٤ . وهو من اسرة كتاب ، وقد اكثر من الرحلة وابعد ، وألف كتاباً في الجغرافية ضمه دي غويه De Goye الى مكتبته الجغرافية . ويتبع كتابه التاريخي خطة لا بد انها احتاجت الى قسط طيب من البحث لتحقيقها . فيورد تفاصيل فلكية في مبدأ كل عهد ، ليستطيع الخبراء ان يروا كيف تبع مجرى الاحداث احوال الكواكب في بزوغها . ويسجل في ختام كل عهد اسماء الرجال الذين كان لهم اعظم النفوذ مع الخلفاء ، وامراء الحج في كل سنة ، وقواد الحملات ، والقضاة المشهورين . وقلما يذكر مؤرخين قدماء في حقبة الخلافة ؛ وكلما اقترب من عصره ذكر من حين لآخر اشخاصاً استقى منهم المعلومات . ومعلوماته عن العهد الذي عاش فيه غاية في الاخلال ، وقاصرة على الهيكل المجرد ؛ ولكنه اكثر

عماً بالعهدين الاموي والعباسي الاول . ويورد قدراً كبيراً من الرسائل والخطب ، التي دون بعضها غيره من المؤرخين ؛ ويصف الخطب احياناً بالشهرة . والمرجح ان هذا الصنف تاريخي . وهو عظيم الاعجاب بعلي وعميق الاهتمام بالأئمة من ابنـــائه ؛ ويفرد صفحات كثيرة للحكم والمواعظ المنسوبة اليهم . ولما كان يصف مذهب المعتزلة بالتوحيد ، فقد نستنتج أن هواه كان مع تلك الفرقة ، اذ ان ذلك هو اللقب الذي اطلقوه على انفسهم . ويبدو انه لم يشاركهم الشك المرتبط بمذهبهم ، حيث يسجل وقوع كثير من المعجزات . وواضح أن عنـــايته بالاخلاق كبيرة . فيورد نصائح الخليفة المنصور لابنه عند موته برمتهـــا ، وهي نصائح بالتقوى والورع والخير، وإن بدا هذا الخليفة من تاريخه من اعظم الخلفاء الذين تولوا الحكم إغفالاً للحق .

ومن المستطاع الرجوع الى معـــلوماته بين حين لآخر لتكملة اقوال الطبري ، ولكنها من القلة بحيث لا تقدم خدمة كبيرة من هذا الجانب . ومن المستطاع اعتبار تاريخه موجزاً جاداً في التاريخ الوطني مدوناً للطلبة ، الذين ليس لديهم الوقت او الرغبة لمتـابعة الدراسة في عمق شديد . ويشبه ترتيبه المادة طبقاً للعهود ــ بخلاف ترتيب الطبري على السنين ــ الترتيب المتبـع في الكتب الحديثة ذات الطبيعة المشابهة . ويجعل النطـــاق المحدد الذي منحه لنفسه وصفه للحوادث غامضاً ، اذ قلما يتسع المجال امامه لتفسير عللها ، ولم يكن لديه البراعة العظيمة في اختيـــار تلك الاعمال الكبيرة للدلالة على الشخصية في رواياته .

وعلى الرغم من ان الطبري أدى لنا خدمة نبيلة بجمع الروايات التي ألفها اسلافه وترتيبها على السنين ، ومحاولة الوصول بالتاريخ الى عصره ، لا يسد كتابه تماماً الحاجة الى الوثائق الرسمية والمعاصرة في الحقبة السابقة . ونمثل لذلك بقصة قيام العباسيين . يروي لنا الطبري كيف انتقلت المطالبة بالخلافة من الحسين بعد وفاته الى محمد بن الحنفية ، الذي نقلها الى مجموعة الراغبين فيها ، الذين نجح السفاح اخيراً من بينهم . ولكنه يدعي ايضاً إيراد رسالة الدعاية التي دافع المنصور فيها عن حقه : وليس في هذه الرسالة شيء عن ابن الحنفية : وإنما يطالب المنصور بالخلافة على اساس انه من يمثل عم النبي المؤمن ، وتلك هي المناقشة التي لم يمل مادحو العباسيين ايرادها البتة . ومع ذلك فمؤكد ان المنصور كان في مناقشاته مع ابناء علي يصير مالكاً لسلاح قوي بانتقال الدعوى من علي الى ابن الحنفية ومن هذا الى احد العباسيين . ويبدو اذن ان المحتمل ان هذه النظرية عن انتقال الدعوى انما ظهرت بعد مجادلات المنصور ببعض الوقت ، رداً على العلويين ، الذين كانوا دائمي المطالبة بالخلافة. ولم يتنبه الطبري الى التناقض في هذه الحالة وبعض الحالات الاخرى ، على حين كان المتوقع ان يلاحظه بحكم مرانه في القضاء .

الفصل السابع

مؤرخو القرن الرابع

[مسكويه]

يصل الادب العربي التـاريخي مستواه الاعلى في القرن الذي شاهد قيام البويهيين . ويشغلنا مؤلفان خاصة : مسكويه ومحسن التنوخي . وكان اولهما تلميذاً لكتاب الطبري الذي سمعه من ابن كامل الذي كان المصدر الرئيسي لترجمة حيـاة الطبري التي ترجمت في المحـاضرة الاخيرة . وكان الى عهده تجمّاعة يستفيد من المواد التي يدها بها الطبري وثابت بن سنان خاصة . وحين يصل بتاريخه الى عهده ، يخبرنا أنه حصل على معلوماته بصفة رئيسية من رجلين بارزين ، اهل لاعطائهنا ، وهما المهلبي ابو محمد الحسن ، وزير معز الدولة، وابو الفضل بن العميد ، وزير ركن الدولة ، وكان المؤرخ امين مكتبة الوزير الاخير . وقـد التحق هو نفسه بعد بخدمة عضد الدولة ، اعظم البويهيين ، وقد صار تنـاوله للحوادث بعد ذلك غامضاً . وهنـاك ما يدعو الى الظن بأنه استعمله ابن عضد

الدولة وخلفه بهاء الدولة ، وتجعله بعض الاخبار على صلة وثيقة بابن عباد ، وزير فخر الدولة المشهور .

وليس من الواضح ما اذا كان مسكويه نفسه هو الذي انتقل من المجوسية الى الاسلام ، او ان الذي اتخذ تلك الخطوة ابوه ، الذي يدعوه عبدالله ، وهو اسم يطلق غالباً بمعنى «انسان» على وجه التقريب . وكانت المهارة في اللغة الفارسية صارت امراً له اهميته حين اتخذها حاكم بغداد لغته الرسمية ، كما هي حال البويهيين الاولين . وكان مسكويه من الكفاية في معرفة البهلوية بحيث ترجم كتاباً في الاخلاق من تلك اللغة الى العربية . وكان يجيد اللغة العربية ايضاً ، ويخبرنا ان اشعاره حازت استحسان ابن العميد الناقد الكفاء . كذلك تدعم الشواهد المعاصرة اشتهاره بالنظم .

وكل من يتقدم من دراسة الطبري الى دراسة مسكويه يجد ان مؤهلات الاخير لتأليف التاريخ اعظم جداً من مؤهلات سلفه . وكانت لديه ميزة كبيرة في اخبار عصره من معرفته الشخصية بالرجال المشهورين : اذ كان قادراً على الحصول على المعلومات من مصادرها الاصلية . اضف الى ذلك ، انه كان عارفاً بمناهج الادارة والحروب في عصره مما يسر له وصف الاحداث وصف عارف والحكم على الاعمال حكم واقف على دقائقها ، بحكم تقلده مركزاً ، وان لم يكن سامياً جداً ، في بلاط البويهيين . وبينما نجد الطبري مقلاً فيما يذكره عن اقتصاديات الخلافة : مصادر الخراج وطرقه وما اشبه ، نجد مسكويه يفيض ويدقق ويوضح في

تلك المسائل. وتفوق تعليقات مسكويه على الشئون العسكرية، مثل اسباب هزيمة المهلبي في القضاء على الثورة في المستنقعات، او اخطاء بختيار في حربه مع عضد الدولة ، الوصف المطول الذي اورده الطبري عن حرب الموفق في المنطقة نفسها تفوقاً كبيراً ، ولا نعرف من اسباب النجاح او الفشل .

وينفرد مسكويه عن غيره بعدم تحفظه في احكامه ، الى جانب تخلصه من معظم صور التحيز . وعلى الرغم من خدمته البويهيين ، لا يخفي جرائمهم ، بل يقسو في احكامه عليهم احياناً قسوة شديدة . فيصور رأس الاسرة ، عماد الدولة ، مغامراً لا مبادىء له . ويلوم معز الدولة ، سيد المهلبي ، اعنف لوم للخيانة التي استهل بها حياته : ويعترف لعضد الدولة ببعض الفضائل و كثير من المواهب ، ويعزو نجاحه في الحكم الى تدريب ابن العميد الى درجة كبيرة ، ولا يخفي اطماع عضد الدولة الزائدة ، وما كان مستطيعاً ان يقول في تلخيص حياته اكثر مما قاله في اعتبار جميل ما فعل ، نأمل ان يغفر الله له. ومن الامور الهامة ان تقارن بين الموجز الحذر الحكيم لحياة عضد الدولة ، الذي ينتهي به تاريخه ، وبين المديح المطنب المبالغ الذي يخصصه الروذباري ، الذي عاش في ظل السلاجقة ، لهذا الشخص .

ومسكويه قليل الميول الدينية جداً ، بخلاف الطبري ، الذي كان متكلماً وفقيهاً . ومن الممكن ان تقرأ مجلداته دون ان تعرف — سوى في فقرة واحدة — ان مؤلفه مسلم . ولعلنا نتوقع ان الحماس الديني انتشر كالنار في الهشيم مدة من هذا القرن : المدة

عندما كان الامبراطور البيزنطي نقفور Nicephorus يعيد فتح المدن والاقاليم ، بسبب ضعف الخلافة . وكان بطل الحروب مع المسيحيين في ذلك الوقت سيف الدولة ، الذي احتل بغداد مرة ، عندما كان على رأس قوات اخيه ناصر الدولة : وقد خُلّدت شجاعته في قتال البيزنطيين في شعر المتنبي . ويظهر سيف الدولة في وصف مسكويه شخصاً ذا مقدرة جد متوسطة ، دل في عدة مواطن على انه قائد غير كفء . ويعترف صراحة بأنه مني بهزائم خطيرة كثيرة في حروبه مع البيزنطيين . واعظم ما يسره من عضد الدولة سماحته المتسعة الآفاق امام الجماعات المختلفة الاديان ، مما كان سبباً في انتشار الامن والرخاء .

ولعل مسكويه كان ميالاً الى اصدار الاحكام السيئة على الاشخاص الذين يدون حياتهم . فروايته في معظمها رواية للطمع ، والتآمر ، والخيانة ، مع سمات قليلة تكفر عن ذلك . بل يتهم الوزير الفاضل ، علي بن عيسى ، بالطمع والرغبة في احتكار الادارة : ولا يمنعه اعجابه بالمهلبي من تدوينه إفراطه في ابتزاز الاموال من اجل قصر معز الدولة . واضطر لتبرير عنوانه « تجارب الامم » ان يدون الفضائح التي تعتبر من جهة اخرى مفسدة للاخلاق : الحيل التي خلع او عين بها الوزراء ، والطرق الوضيعة التي اغرى الرجال بواسطتها على خيانة سادتهم او اقاربهم ، المجال الذي شغلته الاوهام والغباء في الشئون الهامة من الدولة . ولعله يدافع عن إلحاحه على تدوين هذه الامور بالحاجة الى تعليم رجال الدولة .

وبالرغم من ان مسكويه لم يكن الكاتب الذي يرمي الى البلاغة ، كالعتبي وعماد الدين فيما بعد ، يكشف عن مقدرة كبيرة على تصوير الشخصيات ورواية المناظر المفزعة . فمن اليسير تمييز الاشخاص الكثيرين الذين برزوا الى المقدمة في الاعمال التي خضعت الخلافة بواسطتها لسيادة المغامرين الاجانب ، وفي الحقبة التي اعقبتها ، وتلصق ملامحهم بالذاكرة . وقد نتخذ من اعمال البريديين ، مع كون ابي عبدالله ابرز شخصية في الثالوث ، مثالاً من الحقبة الاولى. ويؤخذ على مسكويه أنه عزا الى المقتدر الضعيف المتقلب افلاس الخلافة وانقسام الامبراطورية : ولكن لا يتضح خطؤه حين ننظر الى المثال القائم امامه فيما قام به المعتضد القوي من اجل استعادة قوتها كليهما بعد حقبة الفوضى الطويلة التي تلت وفاة المتوكل .

وقد ادخل في روايته عمداً او غير عامد مجموعة من المناظر المفزعة ، التي ليس من السهل نسيانها اذا ما قرئت مرة ، مثل محاكمة الحلاج ، ووفاة ابن الفرات وابنه محسن ، واخلاص ابي الهيجاء الحمداني للقاهر عندما نصب على عرش المقتدر اولاً ، وحبس الوزير ابن مقلة ووفاته .

واذا كان مسكويه طبيباً حقاً ، فإنه سمح بقليل من آثار تلك المهنة بالظهور في كتابه : ويبدو انه لا يكشف عن اية معرفة خاصة بالدقائق الطبية إلا مرة واحدة . ويؤكد ابو حيان أنه اضاع وقته ومادته في دراسة الكيمياء : ويبدو أن كتابه ليس

به اي اثر لذلك. وقد علق بعض الاهمية على الفلك شأن غيره من علماء عصره : فيفسر نكبة جماعة من الامراء البارزين في وقت متقارب من عام ٣٥٦ بتخمين فلكي : ولكن الفلك اقل بروزاً جداً في الجزء الذي حقق وترجم من تاريخه منه في القطعة الباقية من تاريخ هلال ، الذي يورد خبراً غير عادي عن تنبؤ ناجح .

ويكشف مسكويه على العموم عن شكه في غير الطبيعي ، وهو شك شبيه كل الشبه بشك ايامنا : وعندما يروي حالة حلم صادق رآه ركن الدولة وتحقق بعد تماماً ، اعتذر عن روايته ؛ وانما يرو روايته مثل هذا الخبر الثقة الكبيرة التي يتمتع بها راويه ابن العميد ، وشهرته المستفيضة بالفلسفة . وواضح في روايته محاكمة الحلاج الصوفي ووفاته انه يعتبره مخادعاً وضيعاً : وبرغم ذلك يبدو انه يخطىء الوزير حامد بن العباس لحثه على قتله ، وإن بدا أن حامداً إنما كان يدفعه ايمان صادق بأن امثال تلك الدعاوى التي يطلقها الحجاج خطيرة على الامبراطورية .

والطبقة التي انتمى اليها مسكويه ، وكان عطوفاً على مصالحها بصفة رئيسية ، هي طبقة الكتاب ، الذين كان يرى ان لهم الحق في تولي الوزارة ، لأن المؤهلات الحقة لذلك المنصب لا يمكن الحصول عليها إلا من خلال المران الذي تحتاج اليه مهنتهم . وليسوا عارفين بالاسلوب الملائم لتدوين أوراق الدولة حسب ، بل عارفون بالتفاصيل الجغرافية والاحصائية المحتاج اليها للتنظيم المالي للامبراطورية . ولذلك يشعر بالالم المر حين يرقى الوزارة ابو طاهر

ابن بقية ، الذي بدأ حياته موظفاً في المطابخ الملكية ، ولكنه رقي الى اسمى مركز بكفاءته. وبرغم ذلك تصور روايته ابن بقية هذا ، عند مقابلته ببختيار ، رجل شجاعة ، ونجدة ، وحزم .

ويذكر مسكويه احياناً رواته ، وهم عادة من قد نسميهم الموظفين الدائمين في الدواوين ، او على اية حال الاشخاص الذين كانوا في خدمة الوزراء فاستطاعوا الوقوف على احاديث البلاط ، حيث تذاع عدة اسرار ، وان لم تكن دائماً موثوقة . ويؤكد ابو شجاع انه نقل تاريخ البويهيين ، الذي ألفه ابو إسحاق ابراهيم الكاتب ، وسماه « التاجي » وفقاً للقب عضد الدولة « تاج الملة » ، نقلاً حرفياً على وجه التقريب . فإن كان الامر كذلك . فالجدير بالملاحظة أن مسكويه لم يعترف في اي مكان بهذا الجميل ، كما يفعل حيال مؤرخ آخر من الفرقة نفسها ، هو ثابت بن سنان. وليست قطع التاجي المحفوظة لدى العتبي والثعالبي بكافية لتمكيننا من معرفة ما اذا كان توكيد إبي شجاع قريباً من الحقائق اولاً . ويتوقع المرء أن يكون اسلوب ابراهيم الصابي اكثر صناعة إدبية من اسلوب مسكويه ، البسيط غاية البساطة في جميع انحاء الكتاب.

وإذا كان الخبر القائل ان ابراهيم وصف تاريخه بأنه مجموعة من الاباطيل صادقاً ، ولذلك كاد يفتك به عضد الدولة ، فان ذلك يلقي ظلالاً خطيره من الشك على ما دونه مسكويه عن مبتدأ امر البويهيين . وقلما تثير تلك الرواية الشك ، لأنها بعيدة عن محاولة استرضاء الاسرة ، التي لا تقول شيئاً عن رأسها بويه. ويورد

المؤلفون المتأخرون الحلم الحتمي الذي بشر هذا الرجل بواسطته بالشهرة التي سيتمتع بهـا ابناؤه . ويصور عماد الدولة ، المؤسس الحقيقي لمجد الاسرة ، بارع العمل والتفكير ، ولكن مغامراً غير مراع للحقوق . ويوحي الخبر القائل بأنه هزم جيشاً للخلافة مؤلفاً من ١٠٠٠٠ رجل ، على حين لم يكن معه إلا ٣٠٠ رجل بالشك في الارقـام ، ولكن رواية مسكويه تفسر السهولة التي استطاع بهـا عماد الدولة ان يجمع جيشاً حوله : فلا شيء ينجح كالنجاح . ويبدو أن المرجح أن اخبار الحظ غير العادي الذي يسر لعماد الدولة جمع ثروة كاذبة : فإن ادعاء اكتشاف ثروات مخبوءة امر تظاهر به كثيراً الملوك الراغبون في التهرب من تشويه السمعة المرتبط بجمع المال عن طريق ابتزازه . ويقال ان عضد الدولة نفسه راجع رواية ابراهيم قبل نشرهـا ، ونحن لا نعرف الى اي مدى كان يرغب في الاشادة بأقاربه ، وإن كنا نعرفه حاكماً قوياً طموعاً مغفل للحقوق . ويلقى ابوه ركن الدولة من مسكويه اجمل ما قال : ولكن يبدو من الرواية ان العلاقة بين عضد الدولة وابيه كانت جـافة الى درجة الانقطاع ، بسبب اخلاص ركن الدولة لذكرى اخيه معز الدولة ، الذي اراد عضد الدولة أن يعزل ابنه بختيار عن عرشه ، كما فعل فيما بعد . وواضح ان الحيلة التي نظمت بهـا مقابلة بين الاب والابن دون الاساءة الى كرامة ابيها رواها مسكويه عن احد افراد بني العميد .

[ثابت بن سنان الصابي]

ولا شك ان مرجعه الرئيسي في الجزء السابق على ما يدعي فيه الرواية عن الوزراء الذين خدمهم هو تاريخ ثابت بن سنـــان، المتوفي عـام ٣٦٥، والذي امتد تاريخه من مبدأ عهد المقتدر الى سنة ٣٦١. ويذكره مسكويه بين حين وآخر لتجاربه الشخصية: فقد اطلع على كثير من اسرار الدولة لكونه طبيب البلاط. وقد سأله بحكم المستولي على السلطة في بغداد النصيحة في كيفية ضبط النفس: فنصح هذا الشخص العجيب بتأخير العقـاب ليفتر غضبه. وحضر الوزير ابن مقلة حين بترت يده، ويورد مسكويه منظراً مفزعاً لذلك. وكان هذا المؤلف من الصابئة، الذين يحسن بنا أن نعرف المزيد عنهم: وقد انتجوا عدة مشهورين: علمـاء واطباء وكتاباً. وكان هلال، الذي اكمل تاريخ ثابت من حيث انهاه، والذي توجد قطعة من تاريخه، أول من اعتنق الاسلام من عائلته. وهذا الطبيب في البلاط راوية بارع لشئون عصره، مثل اسرة بختيشوع المشهورة: وكان الرواة الآخرون الذين استطاع أن يرجع إليهم ورجع إليهم مسكويه كتاباً أو رجالاً اتصلوا بمن كانوا وراء المنـــاظر، وعلى علم بالدوافع الخفية، وغير كارهين لكشف اللثام عنها.

[محمد بن يحيي الصولي]

ورجع مسكويه الى مرجع آخر هو كتاب لا يزال موجوداً، كتاب « الورقة » لمحمد بن يحيي الصولي، الذي كان كالبلاذري

رفيق عدة خلفاء ونديمهم ، وتوفي عام ٣٣٦ . وكان لاعباً مشهوراً بالشطرنج : كان لعبه في قول احد هؤلاء الخلفاء احسن من اي منظر يمكن تخيله . وبلغت براعته في تلك اللعبة من العظمة بحيث قيل انه هو الذي وضعها ! ولسوء الحظ أن ترجمة ياقوت له مخلة جداً ، ولكنه اتيحت له فرص قيمة لفهم اسرار الادارة ، والمؤامرات التي كانت تحاك دائماً لخلع الوزراء والولاة ، بحكم صلته بالخلفاء . وضمت آثاره الادبية بالاضافة الى مذكراته المسماة الورقة قوائم بالشعراء والمشهورين ، وتاريخاً للوزراء يذكر بين حين وآخر ، وتاريخاً للقرامطة ، لعله كانت له قيمته ، إذ أن جميع الاخبار التي لدينا عن هذه الفرقة العجيبة والمرعبة من العداء لهم بحيث ان معرفتنا بهم مخلة وتحتاج الى ما يكملها . بل لم يستطع الطبري ، الذي شاهد مبدأ الحركة ، أن يعطينا اكثر من تخمينات بصدد اصل الاسم . ومعنى الفعل في اللغة العربية اليهودية الشائعة في ذلك الوقت « ثار » ، ولكن من الواضح ان هذا الفعل مشتق من اسم الفرقة .

[محسن بن علي التنوخي]

ولم يكن محسن بن علي التنوخي فارسي الأصل مثل مسكويه ، وإنما كان من قبيلة عربية صادقة ، هي تنوخ ، التي انجبت في القرن التالي ابا العلاء المعري المشهور . ويذكر جده في خبر مروي في النشوار : احتل البيزنطيون ، في اثناء فتنة الزنج ، انطاكية ، التي كانت تقيم فيها العائلة ، ثم استعادها المعتضد ، الذي اقسم أن يهدم

سورها . فذعر اهل البلدة لهذا العمل ، وارسلوا وفداً ، برياسة التنوخي ، ليلتمس من الخليفة ألا ينفذ هذا العمل الخطير . ولكن الخليفة ، الذي اقسم على هدمه ، لم يجد مخلصاً : وكان المخلص ، الذي اقترحه التنوخي وقبله الخليفة ، أن تعمل الفعلة في هدمه يوماً واحداً فقط ، وأن يأذن الخليفة لجميع الاقوياء من رجال المدينة في الاشتغال بإصلاحه بعد ذلك[1] .

وغادر ابن هذا الرجل ، واسمه علي ، ومولده في سنة ٢٧٨ ، انطاكية في شبابه ، الى بغداد ، ودرس الفقه على مذهب ابي حنيفة ، وولي القضاء في عدة مناطق من العراق : وكاد يصير قاضي القضاة في بغداد نفسها . وقد استخدمه المغامرون الذين استولوا على السلطة في ذلك العصر في السفارات او المناسبات الاخرى التي يحتاج فيها الى من يوثق به ، شأن غيره من كبار الموظفين .

ويشاد ببراعته في مجموعة متنوعة من الاوصاف ، اهمها المقدرة الشعرية ؛ وعندما فقد مركزه في بغداد ، لجأ الى سيف الدولة ، ومدحه بالأشعار : فسر سيف الدولة ، الذي لا ينازع في حسن تذوقه الشعر ، من إطرائه الى درجة جعلته يستخدم نفوذه في إرجاعه الى منصبه . وكان حفيده علي بن محسن رجلاً مشهوراً ايضاً ، فهو احد مؤدبي الخطيب البغدادي . ولكن محسن بن علي ،

---

(١) كذا روى المؤلف هذا الخبر ، ولكن التنوخي ذكر ان سبب قسم الخليفة كان خروج وصيف الخادم في طرسوس ، واحتماءه بسورها ، كما احتمى بهذه الاسوار غيره من الخارجين على الخلافة . (نشوار المحاضرة ٢٢٧) — المترجم .

الذي عـــاش في المدة بين عامي ٣٢٩-٣٨٤ ذو شهرة اخلد من شهرتها : وقد ولد في البصرة وتوفي في بغداد . وكان مدة قاضياً نائباً لابن ابي الشوارب قـاضي القضاة ، ثم ولي القضـــاء ، في مدن مختلفة ، مجتمعة ومنفصلة ، من الجزيرة وفـــارس . ويدين بترقيه للوزير المهلبي، الذي مثل مع التنوخي منظراً خاصاً من منـاظر الود والالفة ، ليؤثر في قاضي القضاة ، الذي تأثر في غبـاء « وكاد يحملني على رأسه » . وأحبه عضد الدولة ، وواضح انه اعجب بشعره ، وطلب اليه ان ينشده اياه في مجـالسه . وفقد عطف الامير البويهي عندما كانا في همذان ، وعندما زار الصاحب بن عباد ، وزير اخيه ، الامير ، فأراد ان يقبض على الصاحب ، واتهم التنوخي بسماع هذا السـر واذاعته، فخابت الخطة . ويروي الخبر ، الذي ينكر فيه التنوخي التهمة ، ويحاول ان ينتقم من متهميه ، في شماء من الطول الممـل ، ولكنه يروي بطريقة تلقي ضوءاً أليماً على اخلاق العصر . واعترف التنوخي بأنه اخذ بعض الهدايا اللطيفة من الصاحب ، ولكنه لم يذكر سببها : فظن عضد الدولة أنها من اجل اذاعة الخبر . ولكنه عفا عنه ، وبعثه بعد فترة الى الخليفة في امر من الصعوبة والكراهة بحيث تظاهر التنوخي بالمرض ليتخلص منه . واكتشف عضد الدولة بالحيلة ان المرض زائف ، ومنع القاضي من مغادرة منزله : واضطر الى البقاء فيه الى حين وفاة الامير .

وتوجد ثلاثة كتب لهذا الرجل كاملة او اجزاء منها . احدها

مجموعة من الاقوال المعزوة الى الرســـل وغيرهم من الاشخاص المهمين . والآخر ، ولعله اشهرها ، «الفرج بعد الشدة» ، الذي قلنا عنه شيئاً من قبل : ويسمي الاخير ، الذي استغرق عشرين عاماً في تأليفه ، من ٣٦٠–٣٨٠ ، «جامع التواريخ» او «نشوار المحاضرة» ، وهو في احد عشر مجلداً . نشر اولهـــا مع ترجمة ، ويوشك الثامن ان ينشر . ولا ندري الآن اذا ما كانت المجلدات التسع الباقية موجودة في اي مكان . وقد رجع الى الكتاب كثير من الكتاب (صحف كثير منهم الكلمة الاولى من العنوان) إذ انه ذخيرة من الاخبـــار من الامصار المختلفة اشد الاختلاف . ويذكر المؤلف ، الذي وضع مقدمة لكل جزء ، قائمة لقريب من مئة موضوع مختلفة عالجها : ويبدو في المجلد الاول انه اوفى بوعده فيها جميعاً . واستطاع أن يحصل على قدر كبير من المعلومات الغريبة ، التي تؤلف تكملة مستحبة لتاريخ الطبري المزيل ، بحكم قضائه كل حياته في مجتمعات مشاهير العراق ، او فارس ، واتصاله خاصة بالرجال الذين جمعوا كل ما امكنهم اكتشافه عن التاريخ من أسلافهم المباشرين ومعاصريهم ، اتصالاً وثيقاً . ووصل كثير من معلوماته الى كتاب الوزراء لهلال الذي يضم نفس الروايات ، ذاكراً احياناً اسم هذا التنوخي ، واحياناً اسماء الرواة الذين اخذ عنهم التنوخي . ولعله في الاحوال الاخيرة اخذ المادة نفسها من مستمع آخر . ولكن المناسبات التي يتفق فيها مع مسكويه في ايراد مواده أندر ، وإن لم يمكن القطع بشيء بصدد العلاقة بينهما ، مع عدم حصولنا على الكتاب كله .

ورمى التنوخي بصفة رئيسية الى ألا يضمن كتـــابه شيئاً موجوداً في كتاب آخر : ولكنه لم يتشدد كل التشدد في التزام هذه القـــاعدة . إذ يوجد كثير من اخباره في المجلدين كليهما وفي كتابه الاول «الفرج بعد الشدة» . ومهما يكن القول ، فالمرجح ان اغلب المادة التي ضمنها في « نشواره » منقولة شفاها الى ذلك العصر ، ثم رجع اليهـــا المؤرخون والاخباريون لاستخدامها في اغراضهم الخاصة . ويورد معجم الادباء لياقوت كثيراً من القصص من المجلدات الموجودة والمفقودة ، رآها في اثناء جمع مادة اخباره. وتعني ابو علي، تلك الكنية العامة التي يتغير معناها بتغير الموضوع المتناول ، في معجم ياقوت عادة التنوخي .

والاخبار التي تشير الى وزراء القرن الرابع : ابن الفرات ، وعلي بن عيسى، وابن مقلة ، وغيرهم ، موجودة في كتاب الوزراء لهلال ايضاً : ولسوء الحظ لم يصل الينا من هذا الكتاب الا قطعة مثل كتاب الجهشياري ، وعلى الرغم من إفاضة مسكويه في تناوله الوزراء البويهيين ، فر منه كثير من الاخبـــار المنتمية الى هذه الحقبة ، والواردة عن رواة ثقات ، أو ظنها غير جديرة بالتدوين في كتابه . وهي ذات اهمية باقية لمـــا تلقيه من ضوء على عادات العصر او اخلاق الزعماء . ولكن الحقبة التي تحوز مجموعات التنوخي القيمة العظمى بالنسبة لها هي القرن الهجري الثالث ، اذ صارت التواريخ مخلة إخلالاً عجيباً بعد وفاة المأمون . فتصور العلاقات بين الوزراء ، والمؤامرات التي حاكوها للاستيلاء على المراكز ،

والدرجات المختلفة التي كشفوا عنها في شكران الجميل او نكرانه، وخرافاتهم واوهامهم، في وضوح كبير، وتكتسي شخصيات كشخصية سعيد، وعبيدالله بن القـــاسم، واسماعيل بن بلبل، والعبـــاس بن محمد اخي ابن الفرات، التي كانت ظليلة معتمة في التواريخ، تكتسي باللحم والدم تدريجاً.

وهاك احدى قصص التنوخي الهندية. وهو يضمنها في «الفرج بعد الشدة» وفي «نشوار المحاضرة» ايضاً.

حدثنا ابو الحسن محمد بن عمر بن شجاع المتكلم البغدادي الملقب بجنيد، قال: حدثنا الفضل بن هامان السيرافي - وكان مشهوراً بسلوك اقاصي بلاد البحر - قال: قال لي رجل من بعض بياسرة بلاد الهند - والبيسر هو المولود على ملة الاسلام هناك - قال: كان في احدى بلادهم ملك حسن السيرة. وكان لا يأخذ ولا يعطي بمواجهة، وإنما كان يقلب يده وراء ظهره، فيأخذ ويعطي بها، إعظاماً منهم للملك، وسنة لهم هناك ولأولادهم. وأنه توفي، فوثب رجل من غير أهل المملكة فاحتوى على ملكه. وهرب ابن له كان يصلح للملك، خوفاً على نفسه من المتغلب. ورسوم ملوك الهند ان الملك إذا قام عن مجلسه لأي حاجة عرضت له، كان عليه صدرة قد جمع فيهـــا كل نفيس وفاخر من اليواقيت والجواهر مضروب بالابريسم في الصدرة، ويكون فيها من الجوهر ما لو اراد أن يقيم به ملكه لاقامه. قال: ويقولون: ليس بملك من اذا قام عن مجلسه وليست معه، حتى اذا حدثت عليه حادثة

وهرب بها ، امكنه اقامة ملك منها . فلما حدث على الملك تلك الحادثة ، اخذ ابنه صدرته وهرب بها .

فحكي عن نفسه انه مشى ثلاثة ايام ، قال : ولم اطعم طعاماً ، ولم يكن معي فضة ولا ذهب فابتاع به مأكولاً ، ولم اقدر على إظهار ما معي ، وأنفت أن استطعم . قال : فجلست على قارعة الطريق ، فاذا رجل هندي مقبل على كتفه كارة ، فحطها وجلس حذائي . فقلت : أين تريد ؟ قال : الحرام الفلاني . ومعنى الحرام الرستاق. فقلت : وانا ايضاً اريد هذا الحرام. قال : فنصطحب؟ قلت : نعم . فصحبته طمعاً في أن يعرض عليّ شيئاً من مأكوله . قال : فحل الكارة وأكل ، وأنا أراه ، ولم يعرض عليّ شيئاً من مأكوله ، ولم تقوَ نفسي على أن تبدأه بالسؤال . فلما فرغ قام يمشي ، فمشيت معه وبت معه ، طمعاً في أن تحمله المزاملة على العرض عليّ . فعمل بالليل كما عمل بالنهار . قال : واصبحنا في غد فمشينا ، فعاملني بمثل ذلك اربعة ايام . قال : فصار لي سبعة ايام لم أذق فيها شيئاً ، فأصبحت في الثامن ضعيفاً مهووساً لا قدرة لي على المشي . فعدلت عن الطريق ، وفارقت الرجل . فرأيت قوماً يبنون ، وقيّماً عليهم . فقلت للقيم : استعملني مثل هؤلاء بأجرة تعطينيها عشاء . فقال : نعم ، ناولهم الطين. قلت : عجل لي اجرة يوم . ففعل ، فابتعت بها ما أكلته ، وقمت أناولهم الطين . فكنت لعادة الملك اقلب يدي الى ظهري واعطيهم الطين ، فلما أتذكر أن ذلك خطأ ينبه على سفك دمي ، ابادر بتلافي ذلك ، فأرد يدي

بسرعة من قبل ان يفطنوا بي. قال: فلمحتني امرأة قائمة ، فأخبرت سيدتها خبري ، وكانت صاحبة البناء ، وقالت : لا بد أن يكون هذا من اولاد الملوك . قال : فتقدمت الى القيم بحبسي عن المضي مع الصناع ، فاحتبسني وانصرف الصناع. فجاءتني بالدهن والعروق لاغتسل بها ؛ وهذه تقدمة إكرامهم ، وسنة لعظمائهم ، فتغسلت بذلك . وجاءوني بالارز والسمك ، فطعمت . فعرضت المرأة عليّ نفسها في التزويج ، فأجبت وعقدت ، ودخلت بها من ليلتي .

وأقمت معها اربع سنين ، أدبر حالها وحالي ، وكانت لها نعمة. فأنا يوماً جالس على باب دارها ، اذا برجل من بلدي ، فاستدعيته ، فجاء . فقلت له : من أين أنت ؟ قال : من بلد كذا وكذا . فذكر بلدي . فقلت : ما تصنع ههنا ؟ قال : كان فينا ملك حسن السيرة فمات ، فوثب على ملكه رجل ليس من اهل بيت الملك ، وكان للملك الاول ابن يصلح للملك فخاف على نفسه فهرب ، وان المتغلب اساء عشرة الرعية ، فوثبنا عليه فقتلناه ، وانبثينا في البلدان نطلب ابن ذلك المتوفي فنجلسه مكان ابيه ، فما عرفنا له خبراً . قال : فقلت : أتعرفني ؟ قال : لا . قلت : انا طلبتكم . قال : واعطيته العلامات . فعلم صحة ما قلته له ، فكفر لي . فقلت : أكتم امرنا الى ان ندخل الناحية . قال : أفعل . ففعل . قال : فدخلت الى المرأة ، واعلمتها بالخبر ، وحدثتها بأمري كله ، واعطيتها الصدرة ، وقلت : هذه قيمتها كذا وكذا ، ومن حالها كذا وكذا ، وانا ماض مع الرجل ، فإن كان ما ذكر صحيحاً

فـــالعلامة ان يجيئك رسولي ويذكر لك الصدرة ، وان كانت مكيدة كانت الصدرة لك .

قـال : ومضى الرجل ، وكان الامر صحيحاً . فلما قرب من البلد ، استقبلوه بالتكفير ، واجلسوه في الملك . فأنفذ الى زوجته من حملهـا ، فجاءت اليه . فحين اجتمع شمله واستقام امره ، امر فبُنيت له دار ضيافة عظيمة ، وامر أن لا يجوز في عمله مجتـاز إلا حل اليها ، فيضاف فيها ثلاثة ايام ، ويزود لثلاثة ايام أخر . فكان يفعل ذلك ، وهو يراعي الرجـل الذي صحبه في سفره ، ويقدر أن يقع في يديه .

فلما كان بعد حول استعرض الناس . قال : وكان يستعرضهم في كل يوم فلا يرى الرجل ، فيصرفهم . فلما كان في ذلك اليوم ، رأى الرجل فيهم . فحين وقعت عليه عيناه ، اعطاه ورقة تابول ، وهذه علامة غاية الاكرام ونهـاية رتبة الاعظام ، اذا فعله الملك برعيته . قـــال : فحين فعل الملك ذلك بالرجل ، كفر له وقبل الارض . فأمره الملك بالنهوض ، ونظر اليه ، فاذا هو ليس يعرف الملك . فأمر بتغيير حاله ، واحسان ضيافته ، ففعل. ثم استدعاه ، فقـــال : أتعرفني ؟ فقال : وكيف لا اعرف الملك ، وهو من عظم شأنه وعلو سلطانه بحيث هو ؟ قـال : لم أرد هذا ، أتعرفني قبل هذا الحال ؟ قـال : لا فذاكره الملك بالحديث والقصة في منعه إياه الطعام في السفر . قـال : فبهت الرجل . فقال : ردوه الى الدار . فردوه ، فزاد في اكرامه ، وحضر الطعـام فأطعم .

فلما أراد النوم ، قال الملك لزوجته : امضي فغمزيه حتى ينــام . قال : فجاءت المرأة ، فلم تزل تغمزه الى ان نام ، ثم رجعت الى الملك ، فقــالت : قد نام . قــال : ليس هذا نوماً ، حركوه ! فحركوه فاذا هو ميت . قال : فقالت له المرأة : أي شيء هذا ؟ قال : فساق لها حديثه معه . وقال : وقع في يدي ، فتناهيت في اكرامه ، والهند لهم اكباد عظام ، واوهــام ظريفة ، فأدخلت عليه حسرة عظيمة ، اذ لم يحسن إليّ فقتلته ، وقد كنت اتوقع موته قبل هذا ، بمــا توهمه واستشعره من العلة في نفسه لفرط الحسرة .

الفصل الثامن

المؤرخون المتأخرون

[ابو شجاع الروذباري]

يبدو أن التأليف التـــاريخي العربي بلغ أوجه في كتاب مسكويه للاسباب التي قدمت . وضم المرحوم السيد امدروز Amedroz الى الجزء الذي ادخله فيما بعد ابن الاثير في تاريخه العام من كتابه (١) تكملة أبي شجاع ، وزير المقتدي ، ٤٨١-٤٨٤ ، المتوفي عام ٥٠٣ ؛ (٢) تكملة تاريخ ثابت بن سنان لهلال الصابئ ، التي لا يوجد إلا قطعة منها. ويبين المدون عن ابي شجاع الروذباري أنه كان متديناً وورعاً : ويدعم تاريخه هاتين الصفتين . وهو يقينا اقل من مسكويه من الناحية الفكرية ، أضف الى ذلك أنـه يحيد عن طريقه ليمدح السلاجقة ، مقابلا اعمالهم بأعمال البويهيين . ولا يكشف عن أي شيء شبيه بالمعرفة الخاصة التي حصل عليهـــا مسكويه بالادارة من اتصاله بابن العميد والمهلبي ، وبعنايته بها .

[هلال الصابي]

وصدرت طبعة امدروز الاولى تاريخ هلال بالقطعة الباقية من كتابه عن الوزراء ، التي تكاد تقتصر على معالجة وزراء المقتدر : ابن الفرات ، وعلي بن عيسى ، وابن مقلة . ونجد مصدر كثير من قصصه في « النشوار » ، الذي وصفناه امس . ويذكر التنوخي مباشرة احياناً ، وفي احيان اخرى يذكر من روى عنهم التنوخي . ولما كان التنوخي يقول «حدثني» على حين يقول هلال «حدث» . فلعله كان في جميع الحالات يروي عن التنوخي ، الذي عاصر الراوي ، على حين كان هلال متأخراً ، إذ أنه من الجيل الثالث . وكان على شيء من المعرفة الوثيقة التي نجدها عند مسكويه بالاعمال ، بحكم مركزه كاتب دواوين .

[الخطيب البغدادي]

وهناك مؤلفان يجعلهما عملهما الغريب بارزين في القرنين الخامس والسادس ، كل في قرنه . وهما الخطيب البغدادي وابن عساكر الدمشقي . وقد ولد الاول في ٣٩٢ ، وتوفي في ٤٦٣ . ويعتبره ياقوت من ختم به ديوان المحدثين ، ولكن يجب ألا نفهم هذه العبارة فهماً حرفياً متشدداً . وقد اتبع المثل الذي ضربه الطبري وغيره الذين اكثروا من الرحلات وأبعدوا بحثاً وراء المعرفة : فذهبت به رحلاته الى فارس ، والشام ، والجزيرة . وذكر انه لما حج ، شرب من ماء زمزم ثلاث شربات ، وسأل الله عز وجل ثلاث حاجات ، فالحاجة الاولى أن يحدث بتاريخ بغداد ، والثانية

ان يملي الحديث بجامع المنصور ، والثالثة أن يدفن اذا مات عند قبر بشر الحافي . وقد تحققت الرغبات الثلاث جميعاً . وكانت اولاها أيسرها : فلما عاد الى العاصمة بعد رحلاته ، حدث بتاريخ بغداد بها . ثم تحققت الثانية بعد ذلك . فقد وقع اليه جزء ، فيه سماع الخليفة القائم ، فسأل أن يؤذن له في قراءة الجزء . فقال الخليفة : هذا رجل كبير في الحديث ، فليس له الى السماع مني حاجة ، ولعل له حاجة ، اراد أن يتوصل اليها بذلك ، فسلوه ما حاجته ؟ فسئل ، فقال : حاجتي أن يؤذن لي أن املي بجامع المنصور . فتقدم الخليفة الى نقيب النقباء بأن يؤذن له في ذلك .

وكانت الرغبة الثالثة اشقها في التحقق . فقد كان المكان الذي رغب الخطيب ان يدفن فيه قد حصل عليه رجل آخر ، حفر فيه قبراً لنفسه ، وكان يمضي اليه فيختم فيه القرآن . فلما سئل أن يدفن فيه الخطيب ، امتنع ، مبيناً أهميته عنده . فتقدم رجل له خطره لمناقشته . قال : يا شيخ ، لو كان بشر في الاحياء ، ودخلت أنت والخطيب اليه ، أيكما كان يقعد الى جنبه ، انت او الخطيب ؟ فقال : لا ، بل الخطيب . فقال له : كذا ينبغي ان يكون في حالة الموت ، فإنه أحق به منك . فطاب قلبه ، ورضي بأن يدفن الخطيب في ذلك الموضع ، فدفن فيه ، وتحققت بذلك امنية الخطيب الثالثة .

ويروى تمثيلاً لدقة معلوماته ان بعض اليهود اظهر كتاباً ، وادعى انه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسقاط الجزية

عن اهـل خيبر ، وفيه شهادات الصحابة ، وأنه خط علي بن ابي طالب . فعرضه رئيس الرؤساء على ابي بكر الخطيب ، فقـال : هذا مزور ... في الكتاب شهادة معاوية بن ابي سفيان ، ومعاوية اسلم يوم الفتح ، وخيبر كانت في سنة سبع ، وفيه شهادة سعد بن معاذ ، وكان قد مات يوم الخندق ، في سنة خمس . وكانت هذه المعرفة من الندرة بحيث تقدم رئيس الرؤساء الى القصاص والوعاظ ، ألا يورد احـــد حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى يعرضه على ابي بكر الخطيب ، فمـا امرهم بإيراده اوردوه ، وما منعهم منه ألغوه .

ويهمنا ان نلاحظ بين شيوخ الحديث الذين روى الخطيب عنهم سيدة — هي كريمة بنت احمد المروروذي ، التي قرأ عليهـا صحيح البخاري في خمسة ايام ! ولعل الكتاب كان معروفاً معرفة تامة منها كليهما ، ولكن المدة تبـدو قصيرة قصراً عجيباً حتى على هذا الفرض .

ويقال إن مصدر معارف الخطيب مكتبة جمعها من يسمى غيث ابن علي الصوري : خلف بعد موته عند اخته اثني عشر عـــدلاً محزوماً من الكتب . فلمـا خرج الخطيب الى الشام ، حصل من كتبه ما صنف منها كتبه ، وقدرها ٥٥ كتاباً .

وكانت مجالسه في مساجد الشام كمسجد صور مزدحمة : ولكن الخطيب قال : القعود في جـامع المنصور مع نفر يسير احب إليّ من هذا : وواضح ان اهمية العاصمة لم ينل منها ضعف الخلافة الى

حين نكبة المغول. وقد دخل بعض العلوية مسجد صور، والخطيب يملي طلبته، وقدم له دنانير هدية من بعض المحتشمين. فقال الخطيب: لا حاجة لي فيه. فقال العلوي: كأنك تستقله، ونفض كمه على سجادة الخطيب، وطرح الدنانير عليها. وقال: هذه ثلاث مئة دينار. فقام الخطيب محمر الوجه، واخذ السجادة، ونفض الدنانير على الارض، وخرج من المسجد. قال الراوي: ما أنسى عز خروج الخطيب، وذل ذلك العلوي، وهو قاعد على الارض، يلتقط الدنانير من شقق الحصر ويجمعها. وهددت حياته في قصة اخرى في دمشق على يد رافضي كان اميراً للبلدة. وقد سمح له صاحب الشرطة المكلف بقتله ان يلتجيء الى علوي قال للامير: هذا رجل مشهور، وإن قتلته، قُتل به جماعة من الشيعة بالعراق وخربت المشاهد: فأمر بإخراجه الى صور.

ويشغل المحل الاول من ثبت كتبه تاريخ بغداد، وهو معجم للتراجم بصفة رئيسية، وإن صدر بوصف للمدينة. يلي ذلك قائمة كتب متصلة بدقائق علم الحديث، بعضها في الدفاع عن الشافعي، الذي صار الخطيب من اتباعه المتحمسين، بعدما كان اولاً من اتباع ابن حنبل. وبعضها الآخر ذو عناوين شبيهة بعناوين كتب الجاحظ، كتاب البخلاء، وكتاب الطفيليين، وكتاب التنبيه والتوقيف على فضائل الخريف. وكانت قوة ذاكرته مثار الاعجاب: ولكن بعض المنتقصين تمسكوا بأنه لم يكن يستطيع الاعتماد عليها في الاجابة على ما يقدم اليه من اسئلة وأنه كان دائماً يحتاج الى بعض الوقت لاعداد اجوبته.

[ابن عساكر]

ويلصق باسم ابن عساكر علي بن الحسن ، ٤٩٩–٥٧١ ، ثبت اكبر . وقد اكثر من الرحلات وابعد كالخطيب بعد سماع شيوخ دمشق ؛ فقضى خمس سنوات في بغداد ، وغيرها في الحجاز ، واصفهان ، ومرو ، وهراة ، والرقة ، والكوفة ؛ ومن شيوخه ١٫٣٠٠ رجل ونيف وثمانون امرأة . وأعظم كتبه تاريخ دمشق ، الذي كان اولاً في ٥٧٠ جزءاً ثم جعله في ٨٠٠ : ويبتدىء كتاريخ بغداد بوصف للمدينة ينتقل منه الى معجم ألفبائي للرجال الذين عاشوا فيها او اتصلوا بها . ووصف دمشق مخل إخلالاً مخيباً للآمال ، وقد تفوق عليه كتاب طبوغرافي متأخر في يسر : اما معجم التراجم فعمل له مزاياه ، وقد افاد منه ياقوت فائدة كبيرة : واخذ ابن عساكر نفسه الكثير من الخطيب . وهو مليء الى أبعد الحدود بالاسانيد وتكرير المادة الواحدة تبعاً «لطرقها» المختلفة : وهكذا يخصص مجلداً للخليفة الاول ابي بكر ، الذي يظن انه زار تلك المدينة في الايام الاولى : ولكن المجلد لا يحتوي إلا على قليل من الاقوال المعزوة الى هذا الخليفة ، وإنما تملىء الصفحات بالتكرير الذي لا نهاية له . وقد حذفت الاسانيد في الطبعة التي شرع بعض العلماء يصدرونها في دمشق ، فقل حجم الكتاب تبعاً لذلك .

وتضم القائمة الطويلة لكتبه الاخرى ذكر بعض المواد التي تترجم لحياته : معجماً في اثني عشر جزءاً ، لمن سمع منه او اجاز

له رواية الاحاديث : ومجموعات من جميع الاصناف تعالج الجوانب المختلفة من الحديث ، واسئلة في علم الكلام ، وغيرها . والقائمة التي تبين اجزاء كل كتاب غاية في الطول . وربما لم يكن كثير من الكتب غير مواد مجموعة : ولكن الاجزاء التي طبعت من التراجم في تاريخ دمشق تدل على جهد عظيم في جمع اسماء الرجال ، وترتيبهم على الالفباء ، وجمع الحقائق عنهم .

وقد رأينا انه عني عناية خاصة بالخليفة الاول. ودون ابنه انه لما املى في فضائل الصديق سبعة مجالس ، ثم قطعها بإملاء مجالس في ذم اليهود وتخليدهم في النار ، جاء اليه صديق وقال له : رأيت الصديق في النوم وهو راكب على راحلة ، فقلت : يا خليفة رسول الله ، قد املى علينا الحافظ ابو القاسم سبعة مجالس في فضائلك . فأشار إليّ بأصابعه الاربع . فقال له والدي : قد بقي عندي مما خرجتُ ولم أمله اربعة مجالس . ويبدو ان الصديق لم يدون أية ملاحظات ابداها الطيف بهذا الصدد .

ويبدو أنه افلح في الحصول على إعجاب العاصمة ، بخلاف كثير من رجال الامصار الذين اخفقوا في ذلك؛ فكان احد زوار ثلاثة من دمشق تفوقوا على جميع من رأوه من شيوخ بغداد ، وكان هو اعظم الثلاثة . ومع ذلك يقال إنه لم يكسب إلا قليلاً من المال من علمه . وقد اجاب ابنه ، عندما سئل : اي شيء فتح له ؟ وكيف بر الناس له ؟ قال : هو بعيد من هذا كله ، لم يشتغل منذ اربعين سنة إلا بالجمع والتصنيف والمطالعة والتسميع حتى في

نزهه وخلواته. فقال السائل : الحمد لله ، هذا ثمرة العلم ، ألا إنا قد فتح لنا ما حصلنا به الدار والكتب وبناء المسجد ، ما يقرب من اثني عشر ألف دينار ، وطبيعي ان الخبر أدى الى التعليق على قلة الفوائد التي تجلبها الابحاث الدينية والتاريخية . فكثير من الشعراء حصلوا على عشرة اضعاف ذلك المبلغ جائزة على قصيدة واحدة من قصائدهم .

وتعوقنا الحاجة إلى الرواة الاصليين بشكل خطير ، في الحقبة التالية على الزمن الذي ينتهي عنده تاريخ هلال . ونحن نعرف اسماء المؤرخين ، ولكن كتبهم لم تخرج الى الضوء بعد . وقد انتقل مركز الامور ، بعد ألوان الصراع بين فروع بني بويه التي يرويها ابو شجاع (لم يكن هو راويها الاصيل) وهلال ، من بغداد الى شيراز ، واختار سلاطين السلاجقة الذين انتزعوا السلطة من البويهيين عواصم خاصة بهم . وواضح ان بغداد بقيت العاصمة الادبية لعدة اسباب ، ولكن مركز السلطة انتقل الى مواضع اخرى ، وقطعت اوصال بلاد الخلافة الشرقية تقطيعاً لا يرجى له اتصال. وعندما صار الخليفة حاكماً مستقلا ثانية في القرن السادس ، كانت مملكته قطعة صغيرة من الامبراطورية التي كانت فسيحة الارجاء .

[ابن الجوزي]

ولذلك سجلت الحقبة البويهية بعد بهاء الدولة تسجيلاً مخلًا جداً ، وليس لدينا في اللغة العربية تاريخ مرض عن السلاجقة : وقد بقيت

مقتطفات من كتاب البنداري عند عماد الدين الاصفهاني ، الذي يعنى بالاسلوب الجميل اكثر من عنايته بالحقائق . والمؤرخ الذي بلغ بالتـــاريخ الاسلامي الى سنة ٥٧٥ هو الواعظ ابو الفرج بن الجوزي (٥٠٨–٥٩٧) ، الذي يتحدث ابن جبير الرحـــالة عن مواعظه في شغف . وقد رأى الضوء بعض مـــا ألف من كتب كثيرة : احدها عن مناقب عمر الثاني ، وآخر عن الاذكياء ، وهو مجموعة من الاقاصيص العجيبة والمسلية ، تضم بعض القصص «البوليسية». ولقي تاريخه «المنتظم» ، وكان في اثني عشر مجلداً ، مـــا لقيه كثير من الكتب الكبيرة التي من هذا اللون ؛ تفرقت المجلدات ، وشقت اجزاء منفصلة طريقها إلى مكتبات مختلفة . وتؤلف الوفيات في هذا الكتاب جزءاً هاماً من حوادث كل سنة ، وقد اخذ هذا الاسلوب ، الذي اتبعه ابن الاثير بدرجة معتدلة ، في الشيوع التدريجي منذ ذلك العهد : ويتخذ التـــاريخ صورة مشابهة لصورة السجل السنوي، الذي يذكر فيه موجز جد مختصر بالحوادث تتبعه قوائم بالوفيات ، التي تتضخم احياناً فتصير تراجم مطولة .

ويصدق قول جبون Gibbon إن المؤرخ العربي إما الحولي الجاف أو الخطيب المزوق الاسلوب بعد عهد مسكويه ، لا قبله. فلا يصدق على الطبري او المسعودي، او مسكويه ، ويقرب من الصدق عند المؤرخين الذين تلوهم ، ولكن المحتمل أنه قائم على المؤلفين المتأخرين الذين عرفهم جبون في الترجمـــات اللاتينية ، وخاصة ابا الفدا ، الحولي الجاف، وابن عربشاه ، الخطيب المزوق

الاسلوب. فالمهمة التي وضعها المؤرخون امامهم من الضخامة بحيث لم يدعو لانفسهم وقتاً كافياً إلا للاقتطاف من الكتب القديمة : اما البلاغيون فنصبوا لانفسهم مهمة اكثر اعتدالاً ، ولكن عنايتهم كانت موجهة الى البحث عن العبارات المختارة ، والمترادفات التقليدية ، وصور الحديث والسجع ، لا الى فصل الحقائق الهامة عن غير الهامة وتوضيح تطور الاحداث .

ومن الطبيعي أنه توجد في هذا المجال الفسيح من التواريخ العامة ، والخاصة بأسر ، او امصار ، او بقع معينة ، التي لدينا ، خليط جد متنوع من جميع الخصائص التي يمكن أن تدخل الكتابة التاريخية من أي صنف : كالصحة ، والعدالة ، والتمييز ، والقدرة على اجتذاب انتباه القارىء والاحتفاظ بتشوقه . فإن لم يكن احد هذه الكتب التي ترجمت الى لغة اوربية قد حصل على اي لون من الشيوع في اوربا ، فالسبب المحتمل في عدم ألفة الاوربيين للاسماء والهيئات التي تعالجها اكثر منه في افتقارها الى المزايا فيما عالجته من امور . ولذلك على الرغم من انتشار الروايات التي ألفها المرحوم جرجي زيدان في التاريخ الاسلامي ، في مصر وغيرها من الاقطار التي تتكلم العربية ، يتمسك الناشرون الانجليز بأن ترجماتها لن تباع ؛ لانعدام المشاعر التي تغري على قراءتها .

[ابن خلدون]

وقد يقال عن كثير من المؤرخين العرب إن كتبهم آلية ، إذ أنها إعادة لنصوص او روايات كانت موجودة من قبل او

مختصرة منها ، أو إن كان خصص لها وقت ما ، فقد قضى هذا الوقت في المحسنات الادبية التي تختفي في الترجمة ، فهي تؤثر في ظاهر الرواية لا في جوهرها . طبيعي انه يوجد استثناء مشهور من ذلك ، هو كتاب ابن خلدون ٧٣٢ – ٨٠٨ . حقاً ان كتابه التاريخي، الذي تعالج فيه الدويلات «الاسرات» منفصلة ، ولذلك يتكرر كثير من مادته ، ولكنه ذو قيمة فريدة في تسجيل الشئون الافريقية التي يحتفظ بها ، من الصنف الجاف : فهو رواية جد عارية للأحداث. ولكن المقدمة التي تشغل مجلداً كاملاً لا مثيل لها في الأدب العربي وقل امثالها في أي ادب وجد قبل اختراع الطباعة ، في أنها تضم احكام المؤلف العامة التي خرج بها من دراسة السجلات التي تؤلف موضوع المجلدات التالية . والفكرة شبيهة شبهاً عجيباً بفكرة ارسطو، الذي نظم او تسبب في تنظيم اوصاف عدد كبير من المنظمات ، وألف رسالته العظيمة في السياسة من ملاحظاته على ما حدث . ويذهب كلاهما الى وجود اطراد في السلوك الانساني شبيه باطراد الطبيعة : وان طرقاً معينة من الحياة تجلب ميولاً معينة : وكلاهما يتخلص ما امكنه من جميع العناصر الاستثنائية ويستخرج نتائجه من الوقائع العادية ، وتكرار الحوادث المتشابهة التي تبرر ما اتخذوه من قواعد عامة . ولا يرنو ابن خلدون الى خلق دولة مثالية بخلاف ارسطو : وانما هو صاحب رأي بأن الشئون البشرية تتبع مجرى طبيعياً ولا يتوقع غير تكرر نفس مجموعة الاحداث التي أمدته دراساته التاريخية بالكثير من الامثلة عليها . وكانت النتيجة فلسفة للتاريخ ، بعيدة كل البعد

عن اية فلسفة تطورية ، لانهـــا لا تنتظر تقدماً متواصلاً ؛ وانما صوراً محددة تحديداً صارماً منه ، وتحمل بذور الدمــار ؛ فاهل المدن المنهكون يجب أن يفسحوا المجال للمهاجرين الاقوياء من البدو في انتظام. وكان في الامكان التنبؤ بمصير شمال افريقية دون خطأ من النظريات التي شرحها ابن خلدون .

وليست مقدمة قاصرة على التأملات الفلسفية : بـــل يعطينا موجزاً مفيداً بالموضوعات التي شغلت اهتمام المسلمين خارج السياسة ، مبيناً أنه يرى أن وظيفة التاريخ تتعدى المادة التي منحت اصحاب الحوليات موضوعاتهم الرئيسية : ومنها الأدب ، والتطور الفقهي والعلمي ، واصول الفرق ، وما اشبه .

ويبدو أنـه لم يوجد كاتب عربي آخر سار على نهج شبيه بنهج ابن خلدون . وقد بذلت محاولات لنقل نتائج المفكرين الاغريق في السياسة الى لغة عربية واضحة : ولكن عدم معرفة المنظمات التي اقام عليها الاغريق دراستهم في الموضوع جعلت هذه المحاولات مخفقة : فمن الواضح ان الكتاب كانوا يتحسسون طريقهم في الظلام. ومن جهة اخرى وصل هؤلاء الذين يتصورون ان عملهم يقوم على اكتشاف الحقوق والواجبات المشتركة بين الحكام المطلقين والرعية الى القليل مما لا يوجد على السطح .

[المقريزي]

ولم يختف المؤرخون العرب بعد ابن خلدون ، بل غنيت مصر خاصة بتواريخ الحقبتين الايوبية والمملوكية : ومنها تواريخ شاملة ،

تروي الاحـــداث سنة فسنة ، وتراجم افراد من السلاطين ، لا يمكن تمييزها من التـاريخ ، كما رأينا . ومنهم كاتب مشهور هو المقريزي ، الذي تتفوق خططه في وصف طبوغرافية القاهرة على اي وصف آخر لدينا في العربية لأية مدينة اخرى ؛ وهي منجم للآثار القديمة ايضاً ، وتكشف عن جهد في الاعداد والبحث اعظم مما كان لدى اولئك المؤلفين عادة من وقت لينفقوه على اعمـالهم . ولا يقل تاريخه لسلاطين المماليك ، الذي توجد ترجمة فرنسية له ، وإن لم يطبـع الاصل بعد ، عن غيره من التواريخ ، ولكنه قلما يرتفع على المتوسط في اي جـــانب . وكثير من هذه التواريخ المصرية ، كتاريخ الاسلام للذهبي ، اقرب إلى أن تكون مجموعة اخرى من الوفيات منها الى أن تكون تاريخاً مطرداً : ويجهد المؤلفون في جمع الوفيات ، وترتيبها على الالقاب ، وتسجيل ما يعرفونه عنها .

[ابن إياس]

ويجب أن نستثني من ذلك تاريخ مصر لابن إياس ، الذي يصل بالاخبار الى الفتح العثماني، بعد تخطيط موجز للأحداث السابقةعلى عصر المماليك. ولغته من وجهة نظر النقاء غير فصحى ، إذ يستخدم المؤلف عدداً كبيراً من الالفاظ التي لا تضمها المعاجم : ويجب من وقت لآخر الاستشهاد بأشعار عصره العـــامية . ويشغل ذكر التغييرات الواقعة بين الموظفين ، الذين كثروا في نظام الحكومة المملوكي ، وصارت لهم وظـائفهم المحددة تحديداً واضحاً ، يشغل

جزءاً كبيراً من الكتاب. ويكشف اسلوبه وطريقة تفكيره عن فردية اكثر مما يوجد عند معظم اصحاب الحوليات : وواضح أنه يجد متعة كبيرة في تدوين تكذيب الاحداث للاوهام الشعبية . وعلى الرغم من تأليف الجزء الاخير من كتابه في ظل السيادة العثمانية، لا يتردد في تسخيف الترك ، والتعبير عن احتقاره إياهم . ولكن من الآثار الملحوظة للانتصار التركي انقطاع سلسلة التواريخ المصرية.

ولا يرقى ابن إياس الى مرتبة مسكويه في تأليف المنـــاظر الجديرة بالتصوير والمفزعـــة ، وتصوير الشخصيات التي يستطيع القارىء أن يتخيلها ، وتبقى واضحة في ذهنه : فأغلب تفاصيله أجف واقل من أن تحقق هذا الغرض : ولكن التأثير الذي يتركه تأثير راوية امين لحقائق مكتشفة ، ومكتشف واع ، يلاحظ ويدون الامور التي تدل معرفتها على قيمتها . ومن ثم فكتابه عظيم الفـــائدة ، في الآثار القديمة بمعنى صور السلوك والعادات ، والملاحظات على الاعمال العـــامة والامور الاخرى التي يهملها المؤرخون غالباً .

ولدينـا الآن عدة مجلدات مطبوعة من تاريخ لمصر منذ الفتح الاسلامي الى العصر المملوكي ، عـلى نطاق واسع ، هو تاريخ ابي المحـاسن بن تغري بردي ، ومعنى اسم ابيه التركي « هبة الله » . واسلوب هذا المؤلف افصح من اسلوب ابن إياس .

انتهينا الآن من بحثنا في الادب التاريخي العربي القديم : وقد اضطررنا الى المرور على كثير من الكتب الهامة ، المنشورة وغير

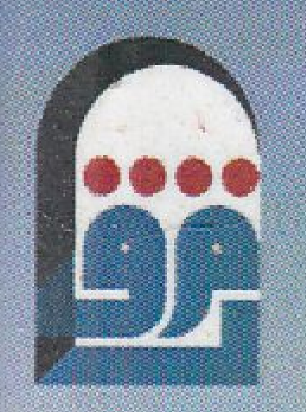
المنشورة ، صامتين : فقد اقتصرنا عـلى المؤرخين الرئيسين بينما كانت عملية تدوين الاحداث تتطور ، ووقفنا عندما مالت الى أن تصبح آلية وذات طابع صارم غير متغير . وليس من المعقول أن نتوقع بين هذه الجمهرة من الاسماء عدداً كبيراً من الروائع : فلم تخرج بلاد الاغريق إلا القليلين جداً ، لأن احداً لا يعتبر التاريخ العام لديودور الصقلي من الروائع ، وكان عدد كبير من الكتب التي من هذا الصنف ، والتي بقيت اجزاء كبيرة من بعضها ، ولا نعرف من غيرها إلا قطعاً ، على حين ضاع فريق ثالث تماماً ، وكان ذا ميزة عـادية ، وإن كان لها قيمتها بسبب ما احتفظت به من معلومات. ولا يقل التأليف التاريخي العربي عن التأليف الاغريقي يقيناً في العدد والتنوع ، وإن كان امامه منطقة اوسع كثيراً ليتناولها : واذا كان لا يكشف عن المقدرة الفكرية اللامعة إلا قليل من آثاره ، او يرجح أن تحصل على اي انتشار واسع في الترجمة ، لا بد أن نضع امامنا عوضاً عن ذلك الرغبة الشفوف التي اظهرها كثير من المؤرخين في الكشف عن الحق المجرد وتدوينه ، وفي الامتناع عن تشويهه بالتحيز او الهوى .

الإشـــــراف اللغـــــوى : حسام عبد العزيز

الإشـــــراف الفـــــنى : حـــسن كـامـــل

التصميم الأساسى للغلاف : أسـامـة العـبـد

تم طبع هذا الكتاب من نسخة قديمة مطبوعة



هذا الكتاب الذى نضعه بين يدى القارئ العربى اليوم هو سلسلة محاضرات ناضجة ألقاها المستشرق الكبير د. س. مرغوليوث فى جامعة كلكتا، وقد كانت زبدة دراسته وبحثه الطويلين فى المخطوطات والمؤلفات العربية التاريخية.

أما مؤلِّفه فهو من أعظم المستشرقين الذين عرفتهم الدراسات العربية والإسلامية. فقد أسدى خدمات جليلة الفائدة فى مضمارى الأبحاث الأصيلة ونشر المخطوطات، وقد نشر دراسات كثيرة عن العرب ومدنهم وتاريخهم وعلاقتهم بالإسرائيليين قبل الإسلام، وقام بتحقيق مخطوطات بالغة الأهمية أشهرها "معجم الأدباء" لياقوت.

و مترجم هذا الكتاب إلى العربية هو الدكتور حسين نصار أحد أساتذة الأدب العربى فى كلية الآداب
جامعة القاهرة. وهو مؤلف مشهور فى حقلى الدرا
الأدبية والتاريخية، وقد ترجم عددا من الكتب القي
إلى اللغة العربية.

